اقرأ

محمد عبد الغني حسن

ملامح من المجتمع العربي

دار المعارف بمصر

ملامح من المجتمع العربي

محمد عبد الغني حسن

ملامح من المجتمع العربي

اقرأ ١٠٢
دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ١٠٢ — يوليه سنة ١٩٥١



استهلال

تحول فى العادات — المجتمع العربى وطبقاته
— أغنياء وفقراء — مجتمع فـكه . . .

تعال معى — أيها القارئ الكريم — نجل جولة فى بقاع من الأرض نشر الإسلام عليها رايته بعد الفتح، وانتشر العرب فيها بعد خروجهم من جزيرة مقفرة ، يقيمون فيها حضارة جديدة ، ويحملون معهم من معادن الصحراء أكرم ما فيها من عناصر ، ثم يمضون إلى بلاد الله يوسعونها فتحاً وتعميراً ، فلا تقف دون غاياتهم أسداد ، ولا يعز على هممهم مطلب . . ولا يتجردون فى غمار الفتوح تتلو الفتوح من أرواحهم العربية ولا ثيابهم العربية . . حتى إذا صهرتهم الأوطان الجديدة فى بواتقها ، وخالطوا الروم ، وامتزجوا بالفرس ، وعاشروا أخلاطاً من الناس غير هؤلاء وهؤلاء — ظلوا مع ذلك محتفظين بأكرم ما فى عناصرهم ، وبقى لهم كثير من طبائعهم الموروثة . . بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك فأشاعوا فى المجتمعات الجديدة التى خلقوها بحكم الفتح روحاً جديدة هى بضعة من أرواحهم .

ولن أعنف بك أيها القارئ الكريم فى السير بما يشق عليك

أو يرهقك من أمرك عسراً . . . وسأنتقل بك — رفيقاً — من أرض إلى أرض ، من تلك الإمبراطورية الإسلامية التى شرقت وغربت حتى ذهبت إلى ما وراء المياه الخضر للمحيطات ... ولا تخش أن يطول عليك وعلى الطريق بما يقطع الأنفاس .. فإننا لا نعدم أن نجد فى بعض الطريق محطا للرحال ، نلتمس عنده الماء والزاد والظل الظليل ، أو الملجأ الأمين . ولا تعجب إذا حدثتك أول الأمر عن هذه المحاط التى كانت لا تخلو منها طريق من الطرق التى تربط أوصال هذه المملكة العربية الواسعة الأطراف . مما يشبه اليوم تلك المواطن التى يسمونها « Rest Houses » المقامة على مسالك الصحراء .

ولا شك أنك ستخفى فى نفسك يا صديقى القارئ أمراً يبديه لسان حالك . . . فتقول : مالنا ولهذه الرحلة الشاقة الطويلة فى مطارح بعيدة ، ومالنا نطوى عصور الأمة العربية جيلا بعد جيل لنكشف القناع عن ماض قد باعدت بيننا وبينه الأيام؟ ومالنا نتلفت فننظر إلى الوراء نظرات ما كان أولاها أن تكون إلى الأمام ؟ ؟ ولكننى أصارحك القول أن عيوننا إذا تلفتت إلى الخلف تلفت القلب وراءها ، ليفرغ لحظات من حاضره الثقيل العنيف ، لعله يستروح نسمة فيها أرج من ذلك الماضى السحيق . . . ولعل نظرة إلى الماضى نتبلغ بها فتعيننا

بعض العون على أن نمضى فى الطريق بهمة نستمد وقدتها من حرارة ذلك الماضى العريق . ولعل لحظات قصاراً نعيشها مع أمس المدبر نجد فيها بلاغاً إلى مستقبل نتوسم فيه الخير .

ولا تظنن يا أخى القارئ أننى سأحملك على أجنحة من الخيال الشارد لأعود بك القهقرى مئات ومئات من السنين . . ! فلن أذكر لك فى هذه الصفحات إلا حقائق قرأتها لك فى عشرات من الكتب، وألّفت بين موضوعاتها نسباً ، فضممت الفرع إلى أصله ، وقرنت الشبيه إلى مثله ، وكنت أقيد لك كل صيد من الحوادث بقيد من الكتابة ، حتى إذا اجتمع لى من ذلك — على فترات من الزمن — مادة صالحة لأن أقدمها إليك ، تشجعت على أن أختارك معى رفيقاً فى رحلة ممتعة كل المتاع ، على خلال العصور ، فترى معى ألواناً من المجتمع العربى بعد الفتح الإسلامى .

* * *

ولا شك أن المجتمع العربى قد تأثر فى أوطانه الجديدة بألوان من العيش لم تتح له وهو على مسارب الصحراء . . . ولا شك أن أهل الأمصار والمدن قد خرجوا من تحول العادات بأوفر نصيب . أما أهل البادية فقد ظلوا — على مدى العصور — محتفظين بتقاليدهم . وكان هذا الاحتفاظ موضع افتخار عند

أولئك القوم الذين قال شاعرهم :

فمن تكن الحضارة أعجبته فأى رجال بادية ترانا -

ومهما يكن من أمر التحول الذى حدث فى المجتمع العربى بعد الفتح الإسلامى فإنه على كل حال لم يكن طفرة إلا فى الطبقات الرفيعة التى أعانتها كثرة الأموال بين يديها والنفوذ عندها أن تحاكى أرقى طوائف المجتمع فى البلاد المفتوحة . حتى لقد كان قصر الوليد بن عبد الملك الأموى — على قرب عهده بالصحابة والتابعين — يزيد على قصور الفرس والروم روعة وحسناً ، وجمالا وجلالا ، حتى اجتلب الرخام الأخضر لأعمدته والأشجار الغريبة لبستانه . أما الطبقات الفقيرة فلم يستجيبوا لداعى الحضارة الجديدة إلا بمقدار ما سمحت به مواردهم المحدودة .

ولم يكن بد أن نتحدث هنا عن طبقات المجتمع العربى ، وإن كان الإسلام قد محا فروق الطبقات ، فلم يجعل مزية لواحد من الناس على غيره ، ولا لأبيض من الناس على أسود ، ولا لعربى من الناس على عجمى . . فهم جميعاً قد خلقوا من ذكر وأنثى (وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) . ولكن الإسلام حين أقرّ المساواة بين الناس وجعلها عنصراً من عناصره لم يغفل ما يختلف فيه الناس من

مواهب ، وما يفترقون فيه من استعداد . ومن هنا اختلفت حظوظهم ، وافترقت فى الرزق أنصباؤهم (والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق) ، ولهذا لم يكن بد من قيام الفقر بجانب الغنى فى كل مجتمع عربى إسلامى ، على أن حقوق هؤلاء على هؤلاء — مما ضمنته العدالة الاجتماعية فى الإسلام — ليس من سبيلنا فى هذا الكتاب .

وإذا كان أحد أبناء البرامكة ، وهو الفضل بن يحيى ، قد قسم فى رأيه الناس إلى أربع طبقات : ملوك قدمهم الاستحقاق ، ووزراء فضلتهم الفطنة والرأى ، وعلية أنهضهم اليسار ، وأوساط ألحقهم بهم التأدب ، والناس بعدهم زَبَدٌ جُفاء — فإن مؤرخاً عربيا فى القرن التاسع الهجري قد قسم المجتمع المصرى إلى سبعة أقسام وهم : أهل الدولة من السلاطين والأمراء ، وأهل اليسار من التجار ، والباعة وهم متوسطو الحال من التجار ، وأهل الفلح من ذوى الزراعات والحرث وسكان القرى والريف ، والفقراء وهم جل الفقهاء وطلاب العلم ، وأرباب الصناعات والأجراء أصحاب المهن ، وذوو الحاجة والمسكنة وهم أصحاب السؤال الذين يتكففون الناس ويعيشون منهم .

ومهما يكن من فرق فى التقسيم بين الفضل بن يحيى البرمكى

فى القرن الثانى من الهجرة ، وبين المقريزى المؤرخ فى القرن التاسع ، فإن حقيقة واحدة تلفت النظر عند الحديث عن طبقات المجتمع العربى ، وهى إغفال المؤرخين للطبقات الفقيرة كأنها لم تكن تكون الكثرة الغالبة من هذه المجتمعات التى كانت تموج بها الممالك الإسلامية ، وكأن أخبارها وأوصافها لم تكن تعنى المؤرخ العربى بقدر ما تعنيه أخبار الطبقة التى كان يوجس خيفة منها ، أو يلتمس الزلفى إليها ، أو يبتغى الوسيلة عندها .

ومما يلفت النظر فى المجتمع العربى على مر العصور ذلك التفاوت العجيب بين طبقاته ، فبينما كانت الدنانير تنثر نثراً فى قصور الأمراء والتجار ، نرى من الناس من لم تقع عيونهم على الدينار طول حياتهم ، وتروى لنا كتب التاريخ قصة ذلك الصياد الفقير الذى خرج ومعه ولده إلى شاطئ النيل ليضيد سمكاً ، وعليه من خلق الثياب ما لا يكاد يوارى سوءته ، ولم يكن ابنه بأستر منه ثوباً . . . فرآه أحمد بن طولون سلطان مصر فأخذته عليه شفقة كما تأخذ كرام الملوك شفقة على رعاياهم ، ورق لحاله .. وقال لغلامه « نسيم » : يا نسيم ! ادفع إلى هذا الصياد عشرين ديناراً . فدفعها إليه ولحق مولاه الأمير . ورجع ابن طولون إلى الصياد فوجده ميتاً ، والصبى بجانبه يبكى

ويصيح . . . فظن أن واحداً من غلمانه السود قتله وأخذ الدنانير منه . . . فوقف بنفسه عليه وسأل الصبي عن أبيه فأجاب قائلا : هذا – مشيراً إلى نسيم – دفع إلى أبى شيئاً ، فلم يزل أبى يقلبه حتى وقع ميتاً . . . فقال ابن طولون : فتشه يا نسيم ! ففتشه فوجد الدنانير معه كاملة لم ينقص منها واحد . . . فأغرى ابن طولون الصبي بأخذها ، فأبى أن يأخذها قائلا : هذه قتلت أبى . . وإن أخذتها قتلتنى . . . .

وقد تقف بنا القصة عند هذا النص الذى يثبت لنا الحرمان حتى من رؤية الدنانير ، والذى يثبت لنا أن فجاءة الغنى قد تقتل كما تقتل خصاصة الفقر . . . ولكنا لا ننسى فى غمرة الحزن على هذا الصياد المصرى المسكين أن كرم الأمير المصرى – ابن طولون – ونبل نفسه قد انتقل بالصبي الفقير اليتيم من طبقة المحرومين إلى طبقة المحظوظين . . . فأمر بأن تشترى له دار ، بخمسمائة دينار ، وأن تكون لها غلة تحبس عليه . .

على أن الله – وهو أرحم الراحمين – قد جعل فى كل بلد إسلامى من الأغنياء من يعطفون على الفقراء ، ولا ينسون أن يؤتوهم مما آتاهم الله من فضله ، وإذا لم يبلغ ذلك فى المجتمعات العربية مبلغ الإحسان المنظم ، كما تفعل جماعات الخير اليوم ، وكما تنهض به جمعيات البر والإحسان فى هذا الزمان فإن التراحم

الذى أوصى به الإسلام أهله كان يظهر على كل حال بصور فردية لو أنها عرفت سبيل التعاون المنظم ما عرف مجتمعنا العربى على مختلف العصور صور الشحاذة ، وحرف الاستجداء والسؤال ، التى كانت تعج بها المجامع العربية فى كل أرض وتحت كل سماء . .

وكان للشحاذين منذ القرن الأول الإسلامى وسائلهم فى اجتلاب شفقة المحسنين ، واستدرار عطفهم . . كما كان لهم عباراتهم العامية البليغة المؤثرة التى تذيب القلوب ، وتستل الدراهم من « الجيوب » . . . كما كان لهم المعانى المبتكرة فى الاستجداء . . تلك المعانى التى لم يتحرج الشاعر أبو تمام من أن يأخذ واحداً منها سمعه من سائل فنظمه شعراً ، وأكمل به بيتاً كان قد أعجزه إكماله . . .

ألم ترو لنا كتب الأدب أن أبا تمام لما بلغ فى قصيدته البائية إلى قوله « وأحسنُ من نَوْر يفتّحه الصَّبا » ، وقف به النظم عند هذا الصدر من البيت يردده . . لأن إتمام المعنى أعجزه ، وإذا سائل يسأل على الباب وهو يقول : من بياض عطاياكم فى سواد مطالبنا . فقال أبو تمام :

وأحسنُ من نَوْر يفتّحه الصَّبا بياضُ العطايا فى سواد المطالب

وهكذا أوحى الشحاذ إلى شاعرنا أبى تمام بالمعنى الذى كان

يطلبه . . . ولم يكن للشحاذين من المضايقات فى القرون الأولى فى المجتمع العربى ما أصبح لهم فى القرون المتأخرة . فهؤلاء أهل دمشق فى القرن الثانى يروى « الأبشيهى » أنهم كانوا يكرمون الفقراء ويلتمسون منهم أن يتقبلوا صدقتهم ويلحفون فى ذلك إلحافاً يوهم الرائى أنهم أصبحوا هم السائلين . ثم نراهم فى عصر الرحالة ابن جبير يظنون فى أنفسهم الظنون حين يعرض الفقراء عن تناول كسرة منهم ، ويقولون : ويحنا ! لو علم الفقير فينا خيراً لتناول من طعامنا . . .

ويلوح أن الشحاذة والاستجداء فى الطرقات وعلى أبواب المساجد قد أصبحت وضعاً مسلماً به فى المجتمع العربى ، ولكن بعض الفقهاء حاول أن يضع لها آداباً ورسوماً ، فنرى الإمام السبكى المصرى فى القرن الثامن يوجب على الشحاذ ألا يُلحَّ فى المسألة ، بل يتقى الله ويجمل فى الطلب .

وما يحدث بين الشحاذين اليوم من ربط سوقهم بالجبائر ، أو عصب رءوسهم بالعصائب إيهاما بكسر أصابهم ، كان يحدث فى مصر المملوكية ، بل روى السبكى أن منهم من يكشف عورته ويمشى عرياناً بين الناس يوهم أنه لا يجد ما يستر عورته . ولم تكن القاهرة وحدها مأوى العرايا من الشحاذين . . فنى بغداد وفى سنة ٣٦٤ هـ وقف شحاذ أسود على قنطرة من

قناطر النهر يستجدى الناس وهو عريان . . ولما قامت ثورة العيارين ببغداد فى ذلك الحين أخذ ذلك الأسود سيفاً وقاد جماعة من النهابين وأخذ أموال الناس .

وإذا كنا نسمع عن بعض الشحاذين فى زماننا هذا ممن يقبلون الصدقات وعندهم بيوت للاستغلال ، أو مدخر من الأموال ، أو نقرأ أن شحاذاً مات عن ثروة ، أو هلك عن ميراث ، فإن ذلك ليس إلا استمراراً لما كان يحدث فى التاريخ العربى على مر العصور ؛ فإن « خديجة الكليباتية » المصرية كانت تقبل صدقات المتصدقين وإحسان المحسنين فى مصر قبيل الفتح العثمانى ، فلما توفيت سنة ٩١٣هـ وجد فى تركتها من خالص الذهب ما يقدر بثلاثة آلاف دينار ، ومن الأثاث ما يقوم بخمسمائة دينار ، وحسبك بذلك ثروة طائلة فى ذلك الزمان . .

* * *

وعلى الرغم من الضيق الشديد الذى كانت تعانيه الطبقات الكادحة الفقيرة فى المجتمع العربى فإن روحاً من الفكاهة أو المعابثة أو الممازحة كانت تسرى فى دخان هذه الطبقات ، لعلها بذلك تعين أكبر العون على إشاعة البسمة فيهم ، حتى يتزودوا لعبوسة الحياة بضحكة تجلو صدأ القلوب . ولقد

بلغت نوادر السائلين والشحاذين حداً صارت تروى معه فى كتب المحاضرات والمسامرات ، حتى اشتهر بعض السؤال – كأبى عون – بالنادرة الحلوة التى لا يضيق بها المسئولون ولا يتبرمون ، وإنما يتقبلونها ويعطفون على صاحبها ، ولا يحرمونه عطاءهم إذا طرق بابهم مرة أخرى . . ألم تحدثنا كتب الأدب والأخبار أن أبا عون هذا سأل رجلا عطاءه فمنعه الرجل ، فما زال أبو عون يلح على الرجل بالمسألة حتى أعطاه آخر الأمر تخلصاً من إلحاحه . . فرفع أبو عون يديه إلى السماء قائلا : اللهم آجرنا وإياهم ؛ نسألهم إلحافاً ، ويعطوننا كرهاً ، فلا يبارك الله لنا فيها ، ولا يؤجرهم عليها . . . !

ولقد ألِفَ الواجدون والمسئولون فى طبقات المجتمع العربى مضايقة السائلين ومعابثاتهم . . كما ألفوا أن يوسعوا لها صدورهم عملا بوصية القرآن الكريم (وأما السائل فلا تنهر) . ألم نقرأ أن أعرابياً وقف يسأل على باب بيت . فأجابه رجل من داخل البيت قائلا : ليس ها هنا أحد ؛ فقال السائل على الفور : إنك لأحد لو جعل الله فيك بركة . . . !

وقد يكون أقصى ما بين السائل والمسئول فى باب الاستجداء أن يطلب الأول العطاء ، فيعطيه الثانى أو يرد عليه قائلا : أعطاك الله . ولكن قد تطول المناقشة بين الاثنين ثم تنتهى

آخر الأمر بنكتة بارعة يقذف بها السائل فى وجه المسئول ، واثقاً أن الغضب لن يخرج بصاحبنا إلى حد ينسيه أدب الإسلام فى معاملة السائلين . . وإذا كان القول لا يتأكد إلا بالمثال ، فإن الحكاية التالية هى أصدق برهان : وقف سائل على باب وقال : تصدقوا علىّ فإنى جائع ، قالوا : إلى الآن لم نخبز قال : فكف سويق ، قالوا : ليس عندنا سويق ، قال : فشربة من ماء فإنى عطشان ، قالوا : ما أتانا السقّاء ، قال : فيسير من الدهن أجعله فى رأسى ، قالوا : من أين لنا دهن ؟ فقال يا أولاد ال . . . . فما قعودكم هنا فى داركم؟ قوموا واشحتوا معى !

على أن هذه الروح المعابثة أحياناً ، المتهكمة أحياناً من جانب الشحاذين والسائلين ، كان يقابلها من ناحية أخري بعض المعابثة والمفاكهة من جانب الموسرين والمجدودين ، وندع هنا رجلا فقيراً من رجال الحديث فى القرن الأول الهجرى ومن أهل البصرة يحدثنا بعبارته عما حدث له مع امرأة من أهل اليسار فى المجتمع العراقى ؛ «قال أبو قلابة» المحدث :

ضقت ضيقة شديدة ، فأصبحت ذات يوم والمطر يجىء كأفواه القرب ، والأولاد يتضورون جوعاً ، وما عندى حبة واحدة أتقوتها . . فبقيت متحيراً فى أمرى ، فخرجت فجلست

فى دهليزى ، وفتحت بابى ، وجعلت أفكر فى أمرى ، ونفسى تكاد تخرج غمـًا مما أنا فيه ، وليس يسلك الطريق أحد لشدة المطر ، فإذا بامرأة على حمار مارة ، وخادم أسود أخذ بلجام الحمار ، والحمار يخوض فى الوحل . . . فلما صار بحذائى سلم علىّ وقال : أين منزل أبى قلابة ؟ فقلت : هذا منزله ، وأنا هو ، فسألتنى المرأة عن مسألة فى الفقه ، فأفتيتها بها ، فصادف ذلك ما أحبت ، فأخرجت من خفها خريطة دنانير ، ودفعت إلىّ منها ثلاثين ديناراً ، ثم قالت : يا أبا قلابة سبحان خالقك ! لقد تنوق — أى تأنق — فى قبح وجهك ! وانصرفت

أليست هذه الفكاهة من جانب المعطى — وهو هنا امرأة — تقابل المعابثة من جانب السائل فيما ذكرناه قبل هذا بقليل ؟ ؟

ولو أن مؤرخاً عنى بدراسة فكاهات الطبقات الفقيرة من المجتمع العربى لاجتمع له بذلك ثروة من الطرائف تصلح أن تكون موضوعاً لبحث نفسى عميق . . لقد كانوا يجدون فى اللجوء إلى التندر والمضاحكات هروباً من مرارة واقعهم ، كما كانوا يجدون فى أغانيهم العامية أو فى أناشيد الأكرة والفعلة التى يغنونها مجتمعين راحة لأنفسهم المعذبة . . بل كانوا يتصيدون النكتة تصيداً حتى لتنفرج أفواههم عن ضحكات

طويلة عميقة يفيدون بها طبعهم المكدود . . ألم يحدثنا المسعودي المؤرخ الرحالة أن جماعة من أهل الخراج والقضاء وعلم النحو جلسوا يتفكهون فى نهر من أنهار البصرة قرب بساتين النخل التى كانت مشحونة بالزراع والعمال ممن يعملون فى التمر ، فيجمعونه ويكبسونه فى القواصر ، وهم يمثلون أفقر طبقات المجتمع العراقى . فأخذ المتفكهون بأطراف الأحاديث بينهم ، وسألوا واحداً منهم — هو أبو خليفة بن الحباب — عن فعل الأمر فى قوله تعالى (قوا أنفسكم وأهليكم ناراً) وكيف يصرف للمذكر والمؤنث إفراداً وتثنية وجمعاً ؛ فأجاب أبو خليفة على عجل : ق — قيا — قوا — قى — قيا — قين . وكان بالقرب منهم جماعة من هؤلاء الأكرة الذين يعملون فى التمر ، فلما سمعوا ذلك استعظموه ، وقالوا : يا زنادقة ، أنتم تقرءون القرآن بحرف الدجاج !

حواء الخالدة

الجوارى والقيان – الحب فى هذا المجتمع – تزين النساء
بائعات الهوى – الراقصات الفاتنات – المرأة الكاملة

لقد كان غاية الرجل من الطبقة المتوسطة فى المجتمع العربى الجديد أن يسعد بزوجة واحدة ، أما الطبقات الفقيرة فكان يشيع فيها تعدد الزوجات ، على الرغم من ضيق أسباب العيش عندها ؛ حتى لقد ألفت المرأة من هذه الطبقة حياة الضرائر ، واعتادت أن تجتمع مع ضرة أو أكثر تحت سقف واحد . . أما الطبقات الموسرة وعلى رأسها الأمراء وأصحاب الدولة فكانوا يجدون فى الجوارى والإماء متاعاً يغنى عن إباحة التعدد فى الزوجات .

ولا شك أن الفقراء كانوا يَشْقَوْنَ بالزوجات الكثيرات ، شقاء الأمراء والأغنياء بالجوارى اللائى كن يلعبن بالألباب ، بل كن يلعبن بالعروش والتيجان .

فهذه « الخيزران » جارية الخليفة المهدى وزوجته ، وأم ولديه الخليفتين موسى الهادى وهارون الرشيد ، بلغت من الجاه والنفوذ ما لم يبلغه أمير من أمراء البيت العباسى ، حتى لقد

أرادت أن تتدخل فى شئون ولدها الهادي وهو خليفة ، فمنعها من ذلك ضناً بقدر النساء أن يمتهن فى أغراض الملك ، وصوناً لخفر الأنوثة أن يخرج إلى بذاذة التبذل . . . وهذه أم الخليفة المقتدر وكانت جارية من بنات الروم ، جمعت السلطان فى يدها حتى خشيها الأمراء ، وارتعد لذكرها الوزراء . . وهذه الجارية الشيرازية « حسن » تولت بنفسها – وعلى يد غلامها – سمل عينى الخليفة المتقى . . . وهذه وتلك كثيرات مما ليس المقام مقام عدهن .

ولم ينس الشعراء والأدباء واجبهم فى الحض على الاكتفاء بالزوجة الواحدة ، وفى التنفير من التعدد الذى لا تصفو معه للزوجية حياة . . . فنرى الحكيم أبا العلاء المعرى يقول :

متى تشرك مع امرأة سواها فقد أخطأت فى الرأى التريك
فلو يرجى مع الشركاء خير لما كان الإله بلا شريك

بل نرى البديع الهمذانى قبله بعشرات من السنين يصور لنا فى مقامته الثانية والعشرين سعادة أحد تجار بغداد بزوجته الواحدة ، ويصفها على لسان التاجر مخاطباً ضيفه قائلا : (يا مولاى : لو رأيتها والخرقة فى وسطها ، وهى تدور فى الدور ، من التنور إلى القدور ، ومن القدور إلى التنور ، تنفث بفيها النار ، وتدق بيديها الأبزار ، ولو رأيت الدخان وقد

غبر فى ذلك الوجه الجميل ، وأثر فى ذلك الخد الصقيل ، لرأيت منظراً تحار فيه العيون ، وأنا أعشقها لأنها تعشقنى . . ومن سعادة المرء أن يرزق المساعدة من حليلته ، وأن يسعد بظعينته) .

ولعل أطرف وثيقة ، أو أغلى نصيحة تأتى فى معرض تعدد الزوجات هى ما جاء فى تلك الخطبة الحكيمة التى خطبها المعز لدين الله الفاطمى فى وفد من شيوخ كتامة المغربية ، فقد قال لهم بعد تزهيد فى اللهو ، وأمر بالعدل ، وحض على الخير ، حتى يتصل فى الناس الجميل : « وأقبلوا بعدها على نسائكم ، والزموا الواحدة التى تكون لكم ، ولا تشرهوا إلى التكثر منهن والرغبة فيهن ، فيتنغص عيشكم ، وتعود المضرة عليكم ، وتنهكوا أبدانكم ، وتذهب قوتكم ، وتضعف نحائزكم ، فحسب الرجل الواحد الواحدة » .

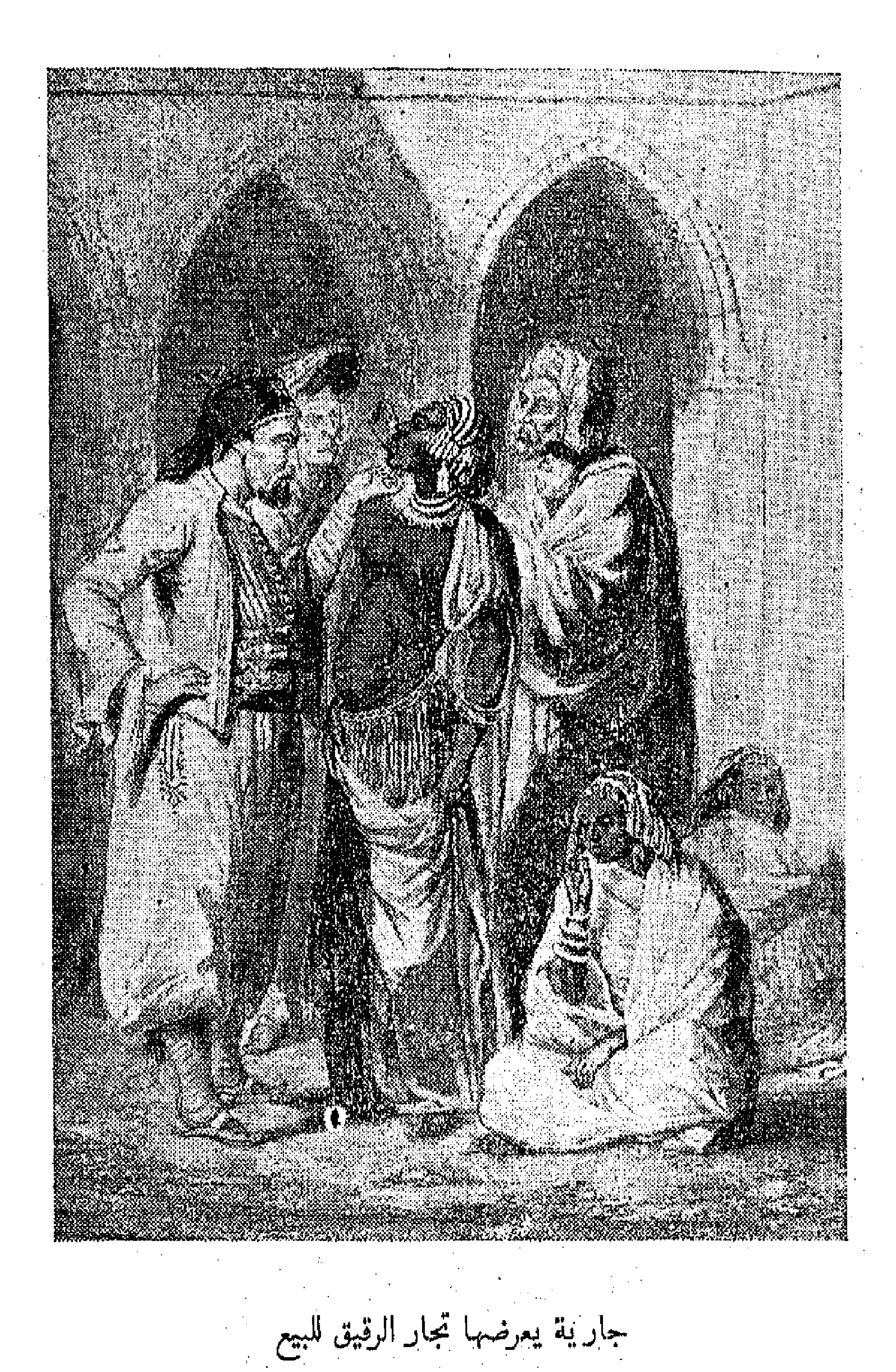
* * *

كان الجوارى يعرضن على الراغب فى شرائهن قبل أن يبدو له الرأى فيهن . فلم يكن الشراء إلا عن معاينة ، وقد تتعرض الجارية لامتحان دقيق ، فتارة تختبر فى عقلها وذكائها وفطنتها وبديهتها وما إلى ذلك من محاسن الخلق . . وتارة تمتحن فى جسمها خشية أن يكون النخاس قد زور فيه شيئاً ليستر فيه

عيباً ، أو يخفى فيه قبحاً . . . ويصف لنا أديب عربى هؤلاء النخاسين المزيفين بقوله : « وكم من مرة جعلوا العين الزرقاء كحلاء ، وحمروا الخدود المصفرة ، وسمنوا الوجوه المقعقعة ، وأعدموا الخدود شعر اللحى ، وأكسبوا الشعور الشقر حالك السواد ، وجعدوا الشعور السبطة ، وبيضوا الوجوه المسمرة ، ودملجوا السيقان المعرقة . . . . . وأذهبوا آثار الوشم والجدرى والنمش والحكة » .

على أن أغلب ما يكون ذلك فى أسواق الرقيق التى كثيراً ما كان ينطلى فيها الخداع ، وتغير فيها المعالم ، وتفعل الأصباغ والدهون والطيوب والشعر المستعار أفعالها . . . . أما الجوارى الفاتنات فكن يجلبن إلى الخلفاء والأمراء والأغنياء جلباً ، فإذا وقعت الواحدة منهن فى نفس رائيها من هؤلاء بذل لها من الثمن ما نستعظمه اليوم ، بل كان يستعظمه الناس فى تلك الأزمان . . حتى لقد بلغ ثمن الجارية التى اشتراها ابن رائق أمير العراق فى الربع الأول من القرن الرابع الهجرى ١٤ ألف دينار ؛ كما بلغ ثمن « بصبص » جارية المهدى العباسى – الذى اشتراها وهو ولى عهد – ١٧ ألف دينار .

ولقد اشترى المهدى هذه الجارية على الوصف لا على المعاينة



جارية يعرضها تجار الرقيق للبيع

وعلى الأخبار لا على الاختبار . . ولم يجد فى ذلك كثيراً ولا عظيما .

ولم يكن المهدى هو الوحيد بين أهل الدولة الذى تعشق جارية على السماع . . . ففى القرن الثامن الهجرى أولع السلطان الناصر قلاوون بجارية لم يرها ، ولكنها وصفت له ، فاشتراها صاحب « ماردين » بعد أن بذل لصاحبها الرغائب . . ولكنها وقعت فى قلب صاحب ماردين ، فاحتجزها لنفسه وشغف بها حباً ، وضن بها على السلطان الناصر . . فأنكر عليه السلطان ذلك ، وأمره أن يحملها إلى مصر ؛ فحمل صاحب ماردين جارية غيرها مع مملوكين من مماليكه ، فلم يخف ذلك على السلطان الناصر ، وردّ الثلاثة مع الرسول محملا إياه تهديده ووعيده بأن صاحب ماردين إذا لم يبعث الجارية المقصودة فسيخرب السلطان ماردين على رأسه . . !

وقد نفع الوعيد ، وأثمر التهديد ، فحملت الجارية المطلوبة بعد أن لم يكن من سبيل إليها إلا ركوب الأسنة ... وهو مركب وخيم !

* * *

ولقد لعب الجوارى والقيان دوراً كبيراً فى الحياة الاجتماعية وفى المجتمع العربى ، منذ اللحظة التى قامت فيها دولة للرقيق ،

فقد كان لهن سحر خاص يؤثر فى القلوب ، ولم ينج من أخذ سحرهن كثير من الخلفاء والسلاطين والأمراء والأغنياء . أما بناة الدول من الخلفاء فقد كانوا عنهن راغبات ، لما فى المشغلة بهن من توهين دعائم الملك . كان معاوية لا يلتفت إليهن ، وكان أبو جعفر المنصور مشغولا عنهن ببناء دولته ، وكان عبد الرحمن الداخل تهدى إليه الجارية الفاتنة فيردها ، حتى لا يدع للهو سبيلا إلى قلبه . أما العاكفون على شهوات النفوس فقد وجدوا فى الجوارى والقيان سبيلا إلى إشباع رغائبهم ، فمن أراد الجمال ، أو الصوت الجميل ، أو ظرف الطباع أو لذاذة الرقص التمس كلا من أولئك عند جارية يهواها . وقد عرف هؤلاء الجوارى مكانهن فى المجتمع العربى الجديد فتدللن . . . وعبثن بالقلوب ، وخادعن فى الود ، لأن القينة منهن كما يقول الجاحظ « مكتسبة ، ومجبولة على نصب الحبالة والشرك للمتربطين ، ليقعوا فى أنشوطتها » وقد حذق هؤلاء القيان صنعة الإغراء . ورسالة الجاحظ فيهن من أطرف ما يُقرأ وألذ ما يسمع ، فليرجع إليها من شاء من حضرات القراء .

وكان الأمراء والكبراء يتهادون بالجوارى ، كما يتهادى الناس فى كل عصر بألطف الأشياء ؛ ولم لا تُهدى الجارية وهى سلعة تباع ، وعرض يعرض فى الأسواق ويقوم بأغلى الأثمان؟

على أن أغرب ما فى إهداء الجوارى هو ما كان يفعله بعض سيدات البلاط العباسى من إهداء أزواجهن الخلفاء عدداً من الجوارى المغنيات وغير المغنيات لكى يشغل بهن الخليفة عن جارية معينة تغار منها امرأته وتود بجدع الأنف لو خلصت منها فلا تجد سبيلا إلى ذلك إلا شغل زوجها عنها بهذه الهدايا الجميلة ! وقد صنعت ذلك زبيدة امرأة الرشيد العباسى حين وقع فى حب الجارية الفاتنة « دنانير » التى كانت فى حوزة جعفر البرمكى والتى كلف بها الرشيد كلفاً شديداً . .

وقد أخفقت السيدة زبيدة أن تحمل زوجها على الرجوع عن هذا الحب الذى أفسد عليها سعادتها ، فلم تجد من حيلة لذلك إلا أن تهدى إليه عشر جوار منهن « مارية » أم ولده المعتصم ، و « مراجل » أم ولده المأمون. وبذلك انشغل الرشيد عن الوقوع فى هوى « دنانير » .

* * *

ولقد بلغ من أثر الجوارى والقيان فى المجتمع العربى ، وخاصة فى العصر العباسى ، أن الشعراء شغلوا بهن ، وصارت الجارية شيطانة جديدة للشاعر العربى فوق الشياطين التى كنا نسمع عنها فى العصر الجاهلى ! فهذه الجارية الجميلة الشاعرة الرقيقة « عنان » لها أحاديث لذيذة مع الشاعرين مروان بن أبى حفصة ؛

وأبى نواس . وهذه الجارية الحلوة الظريفة « فضل » ، كانت تخالط شعراء زمانها من أمثال البحترى ، وابن الجهم ، وابن الرومى فذهبت فى الشعر كما يذهبون ، وكان لها من جياد المعانى فى الشعر ما لا يملك معه السامع نفسه من النشوة والهزة ، كقولها :

لأكتمن الذى بالقلب من حرق ... حتى أموت ولم يعلم به الناسُ

ولا يقال شكا من كان يعشقه ... إن الشكاة لمن تهوى هى الياس

ولا أبوح بشىء كنت أكتمه ... عند الجلوس إذا ما دارت الكاس

وكانت ليالى بغداد على الخصوص فى القرنين الثالث والرابع تهمس فى ظلامها أنغام مما ترسله مجالس اللهو والشراب والغناء فى قصور الخلفاء والأمراء ؛ بل كانت بيوت المقينين — أو تجار القيان — مجمعاً طيباً يلتقى فيه رواد السمر ، وعشاق السهر ، من الكبراء والوزراء والأدباء والشعراء . . فنرى « الناطفى » البغدادى — وكان من كبار المقينين — يفتح داره كل ليلة ، وعنده الجارية « عنان » فما يزال السمار يلهون ويقصفون ويسمعون ، وما تزال « عنان » تبدههم بحاضر الجواب وتبهرهم بإجازة الشعر ، وتأخذهم بحلاوة الحديث ؛ حتى ليشهد لها الشاعر الفحل مروان بن أبى حفصة بأنها أشعر الإنس والجن.

ولا ضير أن أدعوك ياقارئى العزيز إلى سهرة فى بيت « الناطفى » لنسمع شهـــادة الشعر التى منحها الشاعر مروان للجارية

الشاعرة « عنان » . .

لقى الناطفى مرة الشاعر مروان بن أبى حفصة فدعاه إلى بيته ، ولبى الشاعر الدعوة ، وانطلق مع صاحبنا إلى دار كانت من دور بغداد المعروفة بلياليها المجلوة كأنها ليالى العروس . . ودخل الناطفى إلى جاريته عنان قبل ضيفه ، فقال لها : يا عنان ! جئتك بأشعر الناس مروان بن أبى حفصة ، وكانت تشكو فى تلك الليلة علة فقالت : إنى عن مروان فى شغل . . فأهوى الناطفى عليها بالسوط وأذن لمروان بالدخول ، فدخل والجارية تبكى ، والدمع ينحدر من عينها ، فلم يلبث أن نطق بهذا البيت من الشعر :

بكت عنان فجرى دمعها كالدر إذ ينسل من خيطه

فقالت الجارية مسرعة :

فليت من يضربها ظالماً تجف يمنـــاه على سوطه!

فقال مروان : أعتق ما أملك إن كان فى الجن والإنس أشعر منها . .

ولن أبلغ بك فى دار الناطفى وفى مجلس عنان أكثر من هذا المبلغ ، أما ما وراء ذلك مما كان يدور فى هذه المجالس فإننى أرجو أن أعفى نفسى وأعفيك من ذكره ، مخافة أن يشغلنا

حديث اللهو واللذات ، عما نحن بسبيله من حديث العصور والذكريات .

* * *

وقلَّ أن تجد فى المجتمع العربى بعد عصور المخالطة بالأعاجم وبعد انطلاق الشهوات إلى حد لم يكن للمسلمين به عهد — قل أن تجد المواقف العفيفة من فتيان الحب العفيف ؛ وقل أن تجد هؤلاء الشبان الذين لم تعلق بهم ريبة فيما يضطربون فيه من أمور العشق والهيام . وقلَّ أن تجد أيضاً هؤلاء القيان اللائى لم يحببن الفاحشة . فذلك طراز من الناس قد اختفى مع العصر الإسلامى الأول . وأين من أحاديث الحب اللاهى فى العصر العباسى حديث ذلك الفتى الأموى « عمرو » الظريف الذى كان من ولد عثمان ، والذى روى المسعودى المؤرخ خبره فيما يرويه من طرائف الأخبار ؟

كان « عمرو » الأموى هذا يختلف إلى قينة لبعض قريش ، وكان كل منهما يحب صاحبه ، ويكتم ذلك الحب فلا يعلم صاحبه من أمره شيئاً . فالجارية تحب الفتى وهو لا يعلم ، والفتى يحب الجارية وهى لا تعلم . وكل منهما يخفى فى نفسه من الحب لصاحبه ما لا يجد معه سبيلا إلى المعالنة به . ولم تكن محبة القوم إذ ذاك لريبة أو لفاحشة . فأراد الفتى أن يبلو من الجارية

مثل الذى يبلوه فى نفسه . فقال لبعض من عنده : امض بنا إليها ، فانطلقا ووافاهما وجوه أهل مدينة الرسول من قريش والأنصار وغيرهما ، وما كان فيمن حضر ذلك المجلس فتى يجد بها وجده ، ولا كانت صاحبتنا تجد بواحد منهم وجدها بالأموى . . فلما أخذ الناس مواضعهم ، قال لها الفتى : أتحسنين أن تقولى :

أحبكم حبًّا بكل جوارحى ‏ ‏ ‏ فهل عندكم علم بما لكم عندى
أتجزون بالود المضاعف مثله ‏ ‏ ‏ فإن كريماً من جزى الود بالود

قالت : نعم ، وأحسن منه . وقالت :

للذى ودنا المودة بالضعـ ‏ ‏ ‏ ـف وفضل البادى به لايجازى
لو بدا ما بنا لكم ملأ الأر ‏ ‏ ‏ ض وأقطار شامها والحجازا

فعجب الفتى من حذقها مع حسن جوابها ، وجودة حفظها فازداد كلفاً بها ، وقال :

أنت عذر الفتى إذا هتك الستـ ‏ ‏ ‏ ـر وإن كان يوسف المعصوما

وبلغ خبرهما عمر بن عبد العزيز ؛ ولعله ضن بمثل هذا المثال النادر للحب العفيف مع الفطنة وذكاء القلب ، فاشترى الجارية بعشر حدائق ، ووهبها للفتى بما يصلحها ، فأقامت عنده حولا ثم أدركها الموت ، فحزن عليها أبلغ الحزن ، ورثاها ، ولم يستطع أن يعيش بعدها ، أو يطيق صبراً على فراقها ، فمات

بعد قليل ، وضم قبر واحد جسديهما معاً . . . أليست هذه التضحية فى الحب الشريف مما لم نعد نسمع به فى العصور المتأخرة ؟ ثم ألا يستحق هذا العاشق الوحيد فى طرازه أن يبكى عليه الباكون ، وأن يبلغ الوجد عليه من « أشعب » الطامع المازح مبلغ الجد فيقول فيه : هذا سيد شهداء الهوى . . ؟

* * *

وما دمنا فى معرض الحديث عن المرأة ـــ حواء الخالدة ، حرة وجارية ـــ أفلا نجد أنفسنا مسوقين إلى الحديث عن زينتها وحليها وكل ما تحاول أن تجمل به شكلها ، وتبدي به محاسنها ؟ وما بنا حاجة إلى أن نذكر أن التبرج كان من ظواهر المجتمع العربى فى أول ظهور الإسلام ، ولم يكن ذلك إلا امتداداً لمظاهر من الجاهلية الأولى ؛ وقد نهى الإسلام عنه نهياً قاطعاً فى قوله تعالى (ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى) .

أما الزينة فقد أباحها الإسلام فى قوله تعالى (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده) وقوله (يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد) . إلا أن الإسلام جعل لزينة المرأة حدوداً فى قوله تعالى (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخُمُرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن

أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) .

وعلى هذا الأدب الإسلامى والخلق القرآنى فى الزينة وإبدائها كانت المرأة العربية فى الأيام الأولى للإسلام ، إلى أن اختلط العرب بأهل البلاد المفتوحة ، وأخذوا من أسبابهم فى الحياة وطرائقهم فى الملبس وغيره ما. كانت تذهب معه نفس الخليفة أبى بكر حسرات وهو على فراش الموت يوجه الخطاب إلى من حوله من أصحاب رسول الله قائلا : (والله لتتخذن نضائد الديباج وستور الحرير ، ولتألمن النوم على الصوف الأذربى ، كما يألم أحدكم النوم على حسك السعدان) . نعم لقد كان أبو بكر يشفق على المسلمين أن يصرفهم الترف عن طريق القوة ، وأن يصابوا من داء الرفاهية بما تلين به أجسامهم ، وتطرأ جنوبهم ، ويخرع كيانهم ، فيجدوا فى مس الصوف ما يجرح أديمهم كما تجرح الشوكة الجسد .

ولقد صحت نبوءة الخليفة الأول ، وما كذبت فراسته . . .

فقد غطى الترف على كل ناحية من نواحى المجتمع العربى حتى كانت الموجة عامة . وافتنت المرأة فى لباسها وزينتها افتناناً لم يألفه العرب فى يوم من الأيام ، وحمل الجوارى من الفرس أولا ، ومن الروم ثانياً موجة التجمل والتزين. وكان كل ما تحمله الجارية على جسمها مثاراً لفتنة ترتطم فيها عواطف العرب . . حتى ذلك الوشاح الذى يجول فى صدرها ، وتلك العصابة التى تأتلق على جبينها . . . فنرى « عنان » الجارية تكتب على عصابتها باللؤلؤ : إذا لم تستح فاصنع ما شئت ! . ونرى «طرفة» جارية النطاف تكتب على عصابتها بالذهب : ليس فى الحب مشورة ! ونرى جارية الخليفة المتوكل تكتب على عصابتها هذين البيتين :

إذا خفنا من الرقباء يوما تكلمت العيون عن القلوب

وفى غمز الحواجب مغنيات لحاجات المحب إلى الحبيب

ولم يقتصر أمر هذه العبارات الغزلية الرقيقة على كتابتها على العصائب والخمر والبراقع والأطرزة ، بل جاوز الجوارى ذلك إلى الكتابة بالمسك والغالية على الجبين والخدود . ولم تكن هذه الكتابة فى شىء من الوشم البغيض الذى ساد فى الطبقات الوضيعة زماناً ، ولكنها نوع من الوشى الحبيب الذى كان يختلب الألباب اختلاباً . فهذه « مهج » الجميلة جارية إسحاق ابن إبراهيم الموصلى رآها الشاعر على بن الجهم داخلة فى بيت

مولاها وقد كتبت على أحد خديها بالغالية :

من يكن صبا وفيا فعنانى فى يديه

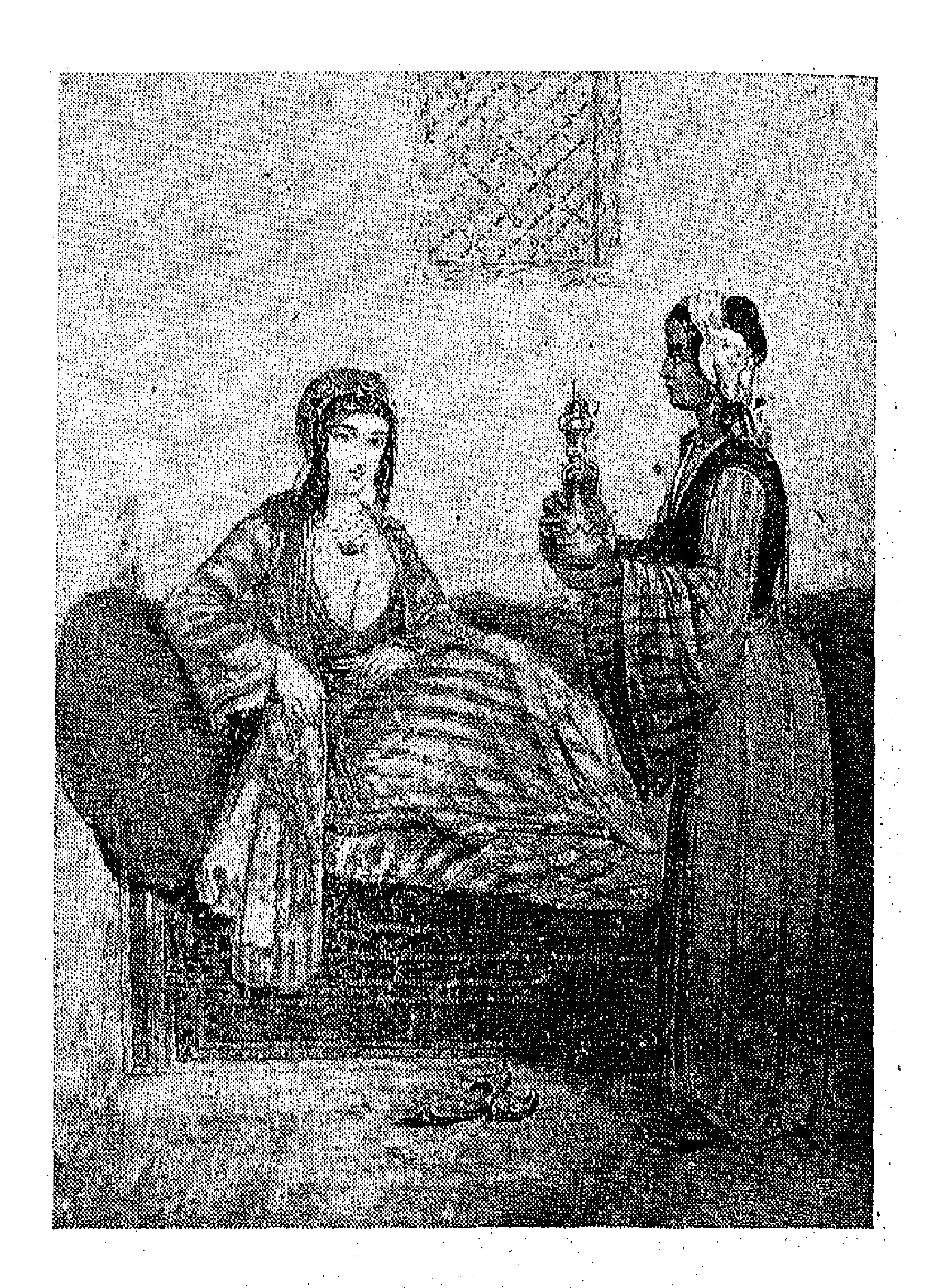
وعلى الخد الآخر

خذ مليكى بعنانى لا أمانعك عليه

* * *

وليس عندنا من النصوص ما نستطيع أن نتبين به زى المرأة العربية المقصورة فى بيتها والتى لم تتبدل كما تبدل فتيات الموالى فى حياتهن اللاهية الجديدة على المجتمع الإسلامى ، أما المرأة البدوية فأغلب الظن أنها لم تتبدل حياتها كثيراً عن حياة سابقتها قبل الفتوح العربية إلا بالقدر الذى يفرق بين الجاهلية والإسلام.

ومهما يكن من أمر فإن النقاب ظل ملازماً للمرأة العربية المسلمة على مر العصور ، ولا تزال بقية من البراقع والخمر فى مصر وفى غيرها من الأقطار العربية . وعجيب أن يكون للنقاب والخمار العربى فتنة عند نساء مدينة بالرمو «بصنقلية» المسيحيات. فقد رآهن الرحالة ابن جبير الأندلسى فى القرن السادس الهجرى وفى ليلة من ليالى عيد الميلاد عند الأوربيين فوصفهن قائلا : «وزى النصرانيات فى هذه المدينة زى نساء المسلمين ، فصيحات الألسن ، ملتحفات منتقبات ، خرجن فى هذا العيد المذكور وقد لبسن ثياب الحرير المذهب ، والتحفن اللحف الرائقة ،



سيدة عربية تقدم لها خادمتها قلة الماء

وانتقبن بالنقب الملونة ، وانتعلن الأخفاف المذهبة ، وبرزن لكنائسهن أو كنسهن حاملات جميع زينة نساء المسلمين ، من التحلى والتخضب والتعطر ، فتذكرنا على جهة الدعابة الأدبية قول الشاعر :

إن من يدخل الكنيسة يوماً   يلق فيها جآذرا وظباء »

ومن هذا النص الذى أوردناه للرحالة ابن جبير نعرف أن النقاب الذى كان نساء « صقلية » ينتقبن به تشبهاً بالمسلمات القاطنات معهن فى الجزيرة كان ذا ألوان ، فلم يكن موحد اللون ، على أن الخمر — جمع خمار — الملونة كانت طرازاً سائداً فى القرن الهجرى الأول ، وكانت بعض المدن تؤثر بعض الألوان على بعض . ويظهر أن الخمار الأسود كان يصنع ويروج فى مدينة الكوفة فى ذلك العصر البعيد ، على حين لم تقبله أذواق النساء فى مدن أخرى . . . ألم يذكروا أن تاجراً من أهل الكوفة قدم «المدينة» بخمر ، فباعها كلها وبقيت منها السود فلم تلق لها سوقاً نافقة ، وكان هذا التاجر صديقاً للشاعر الدرامى ، فشكا ذلك إليه ، فقال له الشاعر : لا يبلغ بك الهم ! فإنى سأنفقها لك ، حتى تبيعها كلها ، ثم قال :

قل للمليحة فى الخمار الأسود   ماذا صنعت براهب متعبد
قد كان شمر للصلاة ثيابه   حتى وقفت له بباب المسجد

وتغنى بعض المغنين بهذا الشعر ، وشاع فى الناس ، فأغري النساء بلبس الخمار الأسود . . فلم تبق فى المدينة ظريفة إلا ابتاعت خماراً أسود ! حتى نفد ما كان مع العراقى منها . . ! وهكذا نجح الشعر فى الترويج والدعاية لشىء من أزياء النساء على نحو ما تصنع « الإعلانات » فى أيامنا هذه . . .

* * *

ولقد وجدت الجواهر والأحجار الكريمة والمعادن الثمينة سبيلها إلى قلب المرأة العربية وعقلها . . ولا عقل للمرأة أمام الجواهر . . فافتنت فى التحلى بها ، وفى ترصيع جسمها وثيابها بحبات منها ، ولقد كثرت اللآلئ والدرر والألماس فى أيدى العرب الفاتحين ، ووقعوا من نفائس ملوك الفرس والكرد والروم على ما لا يحصى كثرة ، وما لا عهد لهم به فى صحراء أجمل ما فيها من الحجر هو « الجزع » الذى يشبه به الشاعر عيون الوحش فى قوله :

كأن عيون الوحش حول خبائنا　　وأرحلنا ، الجزع الذى لم يثقب

وكأن فتح العرب لبلاد الفرس كان فتحاً عظيما لكنز مخبوء لم تقع العيون على مثله ، حتى لقد يبدو الحديث عن ذلك الكنز وجواهره ولآلئه نوعاً من أحاديث السحر وقصص الخرافة ؛ ولكنه كان حقيقة دهش العرب الفاتحون لها ، وبهتوا منها ،

ولم يدرك بعضهم قيمتها ، ولا عرفوا مقدارها ، حتى ليحدثنا مؤرخ ثقة أن عربياً أصاب فى يوم افتتاح « المدائن » بفارس حجراً كبيراً من الياقوت تصل قيمته — لو قوّم — إلى حد كبير ، فلم يعرف صاحبنا قيمته ولم يدر قدره ، وباعه لبعض الناس بألف درهم ، وعاد من الصفقة بأقوى الظن أنه حصل على ربح عظيم . . . ثم علم — بعد لأى من الزمن — أن الحجر بيع بالثمن البخس ، وأنه كان يساوى أضعاف ذلك المبلغ الذى حصل له من بيعه . فلما أخذ أصحابه يلومونه على غفلته وتفريطه كان جوابه أقبح من غفلته حيث قال : لو عرفت عدداً أكثر من الألف لطلبته . . .

ولكن الناس بعد ذلك عرفوا من الأعداد ما وراء آلاف الألوف . . . وعرفوا من الجواهر أسماءها الجديدة عليهم ، وعرفوا مكانها العزيز من تيجان السلاطين ، وخزائن الخلفاء ، وعقود النساء ، وعصائب الجوارى ، وأيدى القيان ، وأرجل الحسان . . . فأقبل الأغنياء على شرائها ، وبذلوا لها من الأموال ، ما نظنه من ضروب الخيال . . . فاشترى الرشيد فصاً من الياقوت الأحمر بأربعين ألف دينار . . . ولم يكن الرشيد فى هذا الثمن مغالياً ولا مبالغاً ولا مخدوعاً . . فإن هذا الفص كان له شهرة تاريخية وقيمة أثرية ، صانته الملوك من

الأعاجم ، وتداولته الدولات ، فاحتازه هرون الرشيد لكى يجمل به مملكته . . . ونقش عليه اسمه .

ورأينا فى العصر العباسى ، وفى عهد الرشيد بالذات ، « علية بنت المهدى » ابنة الخليفة السابق ، وأخت الخليفة القائم تبتدع فى التحلى بالجواهر بدعة لم يعرفها النساء من قبل. . . فقد كان فى جبينها عيب — وهو فضل من السعة — يسمج معه جمال وجهها وحسن خلقها ؛ فأرادت أن تستر هذا العيب ، وأن تخفى هذه السعة فى الجبين باتخاذ العصائب من الحرير ؛ ولكن ذلك لم يكن كافياً ليرضى غريزة المرأة فى التجمل ، فاتخذت العصائب المكللة بالجواهر واللآلئ . وبهذا أحدثت فى التزين النسوى شيئاً ما رئى أحسن منه فيما أحدثه النساء .

ولم تستقر الجواهر الكريمة على رءوس النساء زمناً طويلا حتى جاءت زوجة الرشيد هذه المرة — لا أخته — فأنزلت اللآلئ من علياء مكانها على جباه النساء ، إلى الأقدام ، ورأيناها تأمر — وأمرها المطاع — أن ترصع خفافها — وهى مطية الرجلين — بالكريم من الأحجار . . . . . وشاعت البدعتان فى قصور الأمراء والوزراء والأغنياء ، وسرت هذه « المودة » فى أرفع طبقات المجتمع العربى فى ذلك الزمان . . .

وأصبحت الجواهر ونفائس الأحجار شيئاً جديداً فى المجتمع

الإسلامى الجديد ، يحتاج إلى الدراسة والخبرة والمعرفة ، حتى اشترطوا فى الكاتب — وهى صناعة كثيراً ما أدت إلى الوزارة — أن يكون عارفاً بصفات الجواهر وخواصها وأثمانها ومبلغ نفاستها . فربما جرى ذكر شىء من ذلك فى حضرة سلطانه فتكون معرفته أبعث على رفعة محله ، أو ربما احتاج إلى وصف هدية صدرت عن الملك أو وصلت إليه ، فلا يخطئ الوصف ، أو لا يحسن التعبير .

وأخذت المجتمعات العربية على مر العصور تزيد معرفتها بالأحجار الكريمة ، فيعرفون صحيحها وزيفها ، وخالصها ومغشوشها ، واختص الصناع فى قطعها وصقلها وترصيعها فى الذهب وغيره ونقشها ، وأصبح مألوفاً فى أسواق بغداد ، والقاهرة ودمشق والمغرب وخراسان وغيرها من العواصم والأقطار الإسلامية أن يسمع الناس ويروا اللؤلؤ ، والياقوت ، والبلخش ، وعين الهر ، والألماس ، والزمرد ، والزبرجد ، والفيروذج ، والدهنج ، والمرجان ؛ والباد زهر . . .

* * *

ولا نترك الحديث عن — حواء الخالدة — فى المجتمع العربى من غير أن نلم إلمامة قصيرة بالرقص والغناء لما للمرأة من كبير الصلة بهما ، وإن كان هذان الفنان غير مقصورين على النساء

وحدهن . . . فإننا نجد فى المغنين من الرجال أسماء طويس ، وابن سريج ، ومعبد ، والغريض ، والموصلى ، وغيرهم ممن نقلوا أصول الغناء من الفارسية إلى العربية ، كما نجد فى الراقصين من الرجال أسماء « كبيش» ، و «عبد السلام الراقص » و « إسحاق ابن إبراهيم الموصلى » وغيرهم من رجال العصر العباسى . ولا يختص العصر العباسى وحده بالراقصين من الرجال ؛ فإن صاحب كتاب الضوء اللامع يروى لنا خبر حيدر بن أحمد الرومى الأصل وأخيه إبراهيم الشاب الظريف اللذين وفدا على مصر فى عهد السلطان المملوكى الأشرف برسباي ، ونبغا فى الموسيقى والرقص ، وانتهت إلى إبراهيم الرياسة فى الرقص فى عصره . إلا أن رقص هذين كان فيه من التواجد والهيام وشطحات التصوف ما لا نجده فى رقص إسحاق الموصلى الذى رقص طرباً فى حضرة الخليفة الواثق فشهد له بكمال الصنعة .

فإذا جدت بنا الرحلة من المشرق إلى الأندلس ، رأينا الأندلسيين يطربون للرقص ، ويعجبون برقص الفتيان ، ونسمع شاعراً من شعراء ذلك الفردوس الإسلامى الضائع يصف غلاماً راقصاً بقوله :

ومنزع الحركات يلعب بالنهى ... لبس المحاسن عند خلع لباسه
متأوداً كالغصن وسط رياضه ... متلاعباً كالظبي عند كناسه

بالعقل يلعب مقبلا أومدبراً   كالدهر يلعب كيفشاءبناسه
ويضم للقدمين منـــه رأسه   كالسيف ضم ذبابه لرياسه

ويريننا البيت الأول من هذا الشعر الأندلسى الرقيق أن الراقص كان يخلع ثيابه عند الرقص ، ويتجرد من لبس ما يعوق حركاته ولعل الراقصات كن أكثر تجرداً من ذلك ، كما نراه فى زماننا هذا .

وقد امتلأت رقاع المملكة الإسلامية شرقاً وغرباً بالراقصات وكثر ذلك منذ العصر العباسى حيث أتاحت الطفرة الجديدة فى الاجتماع ألواناً من لذاذات العيش ومتاعه لم تتح من قبل . فنرى بغداد وقد غصت بالراقصات المشهورات ، ونرى أن رقصة « الكرج » أو (Chevaux de Bois) قد شاعت فى هذه العاصمة المترفة ثم انتقلت منها إلى بقية العواصم ، ونرى المؤرخ ابن خلدون يصف هذه الرقصة التى تعتمد على آلات تسمى الكرج ، وهى تماثيل خيل مسرجة من الخشب ، معلقة بأطراف أقبية ، يلبسها النسوان ، ويحاكين بها امتطاء الخيل ، فيكررن ، ويفررن ، ويثاقفن . ثم نرى فوق ذلك أن بعض المدن الإسلامية تشتهر بالنساء الراقصات ويكون لها فى ذلك فضل مزية على غيرها ، فيروى لنا مؤرخ أن مدينة « آبدة » الأندلسية كان فيها الرواقص المشهورات بحسن الانطباع والصنعة .



رسم راقصة على قطعة خزفية من العصر الفاطمي

ولا يرتجل المسلمون الرقص حين يجعلونه ضرباً من ضروب لهوهم ، وإنما يضعون له القواعد ، ويقيمون له الرسوم ، ويحكمون الصناعة فيه ، ويجعلون له من الشروط ما يجعله مؤثراً فى الطباع محبوباً عند الرؤية ، خفيفاً فى نظر المشاهد . فاشترطوا فى الراقصة خفة الروح ، وحسن الطبع على الإيقاع ، وكثرة التصرف ، وثبات القدمين ؛ كما اشترطوا فى خلقتها طول العنق والسوالف ، ودقة الخصر ، وتناسب الخلق ، ولطافة الأقدام ، ولين الأصابع والمفاصل ، وسرعة الانفتال ، وحسن الدل ، وتمايل الأعطاف .

ونرى الراقصات من جهتهن يحسن – فى خلال الرقص – التعبير عن معانى الغرام بما يناسبها من الحركات والإشارات ، كتدلل الحبيب ، وتوله المحب ، وثقل الرقيب . وتشير الراقصة بأناملها إلى أعضاء جسمها ، كأنما تدل على ما أصابه كل عضو من الوجد ، أو ما لقيته كل جارحة من الضنى . . . فإن ذكرت الدمع أشارت بأناملها إلى عينها ، وإن ذكرت حرق الصبابة أشارت إلى قلبها . ويشير إلى ذلك الشاعر ابن حمديس الصقلى الأندلسى بقوله :

وراقصة بالسحر فى حركاتها ... تقيم به وزن الغناء على حد
منغمة ألفاظهـــا بـــترنم ... كسا «معبداً» من عزه ذلة العبد

تدوس قلوب السامعين برحمة　　بها لقطت ما للحون من العد
بقد يموت الغصن من حركاته　　سكوناً وأين الغصن من نزهة القد
وتحسبها عمـــا تشير بأنمل　　إلى ما يلاقى كل عضو من الوجد
بنا لا بها ما تشتكى من جوى الهوى
وأدمع أشواق مخـــددة الخـــد

على أن أكثر ما كان يستهوى الشعراء من الراقصة هو تلك الخفة التى تطأ بها قدماها الأرض ، وتلك السرعة فى الحركة ، وذلك اللين فى الأعضاء كأنما كل عضلة من جسدها طوع يديها . . . كما يقول الشاعر جمال الدين الفارقى :

لله راقصة تميـــل كأنها　　ظل القضيب إذا تمايل مزهرا
تغدو وترجع كالخيال فلا ترى　　حركاتهـــا إلا كطارقة الكرى
لانت معاطفها فكيف تلفتت　　وتفلتت لا يستطاع بأن ترى

ولعل راقصة لم يخف وطؤها على مكان الرقص كتلك التى وصفها الشاعر على بن أبى اليسر بقوله :

هيفاء إن رقصت فى مجلس رقصت
قلوب من حولها من حذقها طربا
خفيفة الوطء لو جالت بخطرتها
فى جفن ذى رمد لم يعرف الوصبا . . .

فقد بلغ من خفة حركتها أنها لو جالت وخطرت فى جفن

رجل أرمد العينين ما اشتكى ألماً ، ولا أحس وصباً . . .

وللشعراء فى هذا الباب كثير ، لو أخذنا فيه لخرجنا عن غرضنا فى هذه الملامح . . .

* * *

وفى غمار هذا العالم المملوء بالفتنة والإغراء ، وفى خلال تلك الحياة الصاخبة الغارقة فى اللهو ، وعلى لهيب تلك الشهوات العارمة التى وجدت لها سبيلا سهلا حتى إلى قصور الخلفاء ، فلم يعد للدين ذلك الوازع القوى الذى كان يوحى إلى على بن أبى طالب أن يخاطب الدنيا فيقول : « يا دنيا غرى غيرى ! إلى تعرضت؟ أم إلىّ تشوقت ؟ . » ويوحى إلى الخليفة عمر بن الخطاب فيبكى من خشية الله حتى تخضل لحيته . . . وفى ذلك الجو الخانق الذى كانت تتنفس فيه عاصمة عربية كبغداد أيام العباسيين ، وكالقاهرة أيام الفاطميين ومن بعدهم من السلاطين. نرى أن بيوتاً للإثم تقوم ، ودوراً للدعارة تشيد بين بيوت الأحرار والحرائر . ونرى النساء الساقطات يقمن هذه البيوت باسم الدولة وفى حمايتها . . ونرى المواخير والحانات فى عصر الرشيد والمأمون والمعتصم والمتوكل تنقلب إلى دور للدعارة فى العصر البويهى وفى أيام « عضد الدولة بن بويه » بالذات . ثم يقر ذلك الوضع الشاذ الغريب فى بلد إسلامى كالعراق الفارسى ، وترسم على هذه البيوت

ضريبة تدخل حصيلتها إلى بيت المال . . . ثم تنتشر العدوى إلى مصر الفاطمية — والشر دائماً سريع الانتقال — فنرى صاحب كتاب « الخطط » يشير إلى بيوت الفواحش التى كانت تجبى عليها الرسوم ، ويضمن تحصيلها ضامن ، تحت يده عدة صبيان وعليها جند مستقطعون وأمراء ؛ وكانت تشتمل هذه الضريبة — أو يشتمل تحصيلها — على ظلم شنيع ، وفساد قبيح ، وهتك قوم مستورين ، والهجوم على بيوت أكثر الناس ؛ وكان يختلط فى تحصيل رسوم الدعارة الشريف مع غير الشريف ، ويستوى فى شرور جبايتها الخبيث والطيب . وصدق الله وهو أحكم القائلين فى كتابه الكريم : (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) .

ومما يدل على إقرار الفاحشة فى مصر الفاطمية والأيوبية والمملوكية قول المؤرخ المقريزى فى موطن آخر من خططه : « ومقرر ما على كل جارية أو عبد حين نزولهم بالخانات لعمل الفاحشة ، فيؤخذ من كل ذكر وأنثى مقرر معين » .

ولكن هذا الوضع الشاذ الغريب فى أمصار إسلامية وفى مجتمع عربى مهما قيل فى اختلاط أجناسه — هذا الوضع قد برم به جماعة من المسلمين الغُيُر على آداب الدين ، وضاقوا به ذرعاً ، وأجمعوا على أن يغيروا هذه المناكير بأيديهم ، وبهذا

قامت فتنة الحنابلة فى مدينة بغداد سنة ٣٢٣ هـ وعلى رأسهم زعيمهم أبو محمد البربهارى ، فكبسوا الدور ، وأراقوا دنان النبيذ حيث وجدوها ، وضربوا المغنيات حيث لقوهن ، وكسروا آلات الغناء حيث رأوها ، وكانوا يعترضون كل رجل يمشى مع امرأة فى الطريق فيقودونهما إلى دار الشرطة ويشهدون عليهما بالفاحشة ما لم يخبر الرجل عن المرأة التى معه، مخافة أن تكون من مشيعات الفحشاء . ولكن هذه الثورة قد أخمدها بدر الخرشنى صاحب شرطة بغداد فى سرعة وحزم مخافة أن تنقلب إلى شر كبير .

ومهما يكن من أمر تلك الثورة الحنبلية على الفحشاء والمنكر فى بغداد ، ومهما قيل فى مجافاتها لروح النظام القائم فى الدولة فإنها على كل حال كانت صوتاً قوياً من أصوات الاحتجاج على قلب الأوضاع فى المجتمع العربى فى القرن الرابع . وهى حملة تذكرنا بتلك التى حملها الإمام ابن تيمية فى مصر والشام فى القرن الثامن الهجرى لما رآه من انحلال المجتمع الإسلامى فى عصره وبعده بعداً كثيراً عن الحياة المثالية الرفيعة للإسلام والمسلمين . على ما بين الحملتين من فرق كبير فى الأسلوب . .

ألوان من الناس

بعض أصحاب المهن والصناعات — القضاة — القصاصون والشعراء — الحواة والمشعوذون . . .

لقد كانت الصناعة فى البادية العربية قبل الفتوح تقوم على الضرورى من أسباب العيش ، ولم تكن الحياة عندهم معقدة إلى الحد الذى يقتضى قيام مهن كثيرة وصناعات متعددة ، ولم تزد الحرف على أكثر مما يوائم حاجاتهم البسيطة ومجتمعاتهم المبعثرة فى الصحراء . فلما فتحوا الأمصار وخططوا المدن الكبرى ، وأنشأوا العواصم والحواضر انجذب الناس نحوها وعمروها ، واقتضى العمران أن تقوم الحرف والصناعات التى تستطيع أن تستجيب بحق إلى رغبات هذا المجتمع الجديد . وأخذت قصبات الخلافة الجديدة تنمو وتزدهر ويزدحم السكان فيها وحولها . وأصبحت للمجتمع الجديد النامى مطالب من العيش فيما يتصل بالطعام والشراب واللباس والأثاث والزينة . وقامت الحوانيت الكثيرة تعج بها المدن لتلبى حاجات كل محتاج . ولم يعد الخبز — مثلا — وهو قوام الحياة تصنعه المرأة العربية فى بيتها كما كانت تصنعه البدوية بيديها وعلى ملتها . .

بل وجدنا الأفران العامة تقام فى المدن ، تارة فى الدروب والأحياء ، وطوراً فى أطراف البلد ، ورأينا من عمل المحتسب فى الدولة أن يراقب هذه الأفران ، ويأمر بإصلاح مداخنها ، ويتعاهد جرف الدف — وهو لوح العجين — حتى لا يلصق عليه ، ويكلف الخباز بتمييز خبز كل واحد بعلامة — كما يصنع الفرانون فى زماننا هذا — لئلا يختلط الجميع . ويظهر أن بعض الفرانين فى مصر كانوا يشوون السمك مع الخبز على بلاطة واحدة ، ولهذا جعل المحتسب ملاحظة ذلك من واجبه حتى لا يسيل شىء من دهن السمك على الخبز فيغير رائحته وطعمه .

وقامت بجانب هذه الأفران الكبيرة أفران صغيرة لصناعة الفطائر والزلابية ، ولا ننسى تلك الصورة الطريفة التى صور لنا فيها الشاعر ابن الرومى سرعة صانع الرقاق وخفة يده فى قوله :

ما أنس لا أنس خبازاً مررت به
يدحو الرقاقة وشك اللمح بالبصر
ما بين رؤيتها فى كفه كرة
وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائرة
فى صفحة الماء يرمى فيه بالحجر

ولا ننسى كذلك صورة قالى الزلابية فى وقت السحر التى صورها الشاعر بقوله :

رأيته سحراً يقلى زلابية
فى رقة القشر والتجويف كالقصب
يلقى العجين لجيناً فى أنامله
فيستحيل شبابيكاً من الذهب

وهنا نرى المحتسب يقوم بعمله ، فيلاحظ رجاله نوع الدقيق أو السميذ كما يلاحظون الدهن أو الزيت الذى يقلى به ، ويراقبون مقلى الزلابية الذى كان يشترط فيه أن يصنع من النحاس الأحمر الجيد .

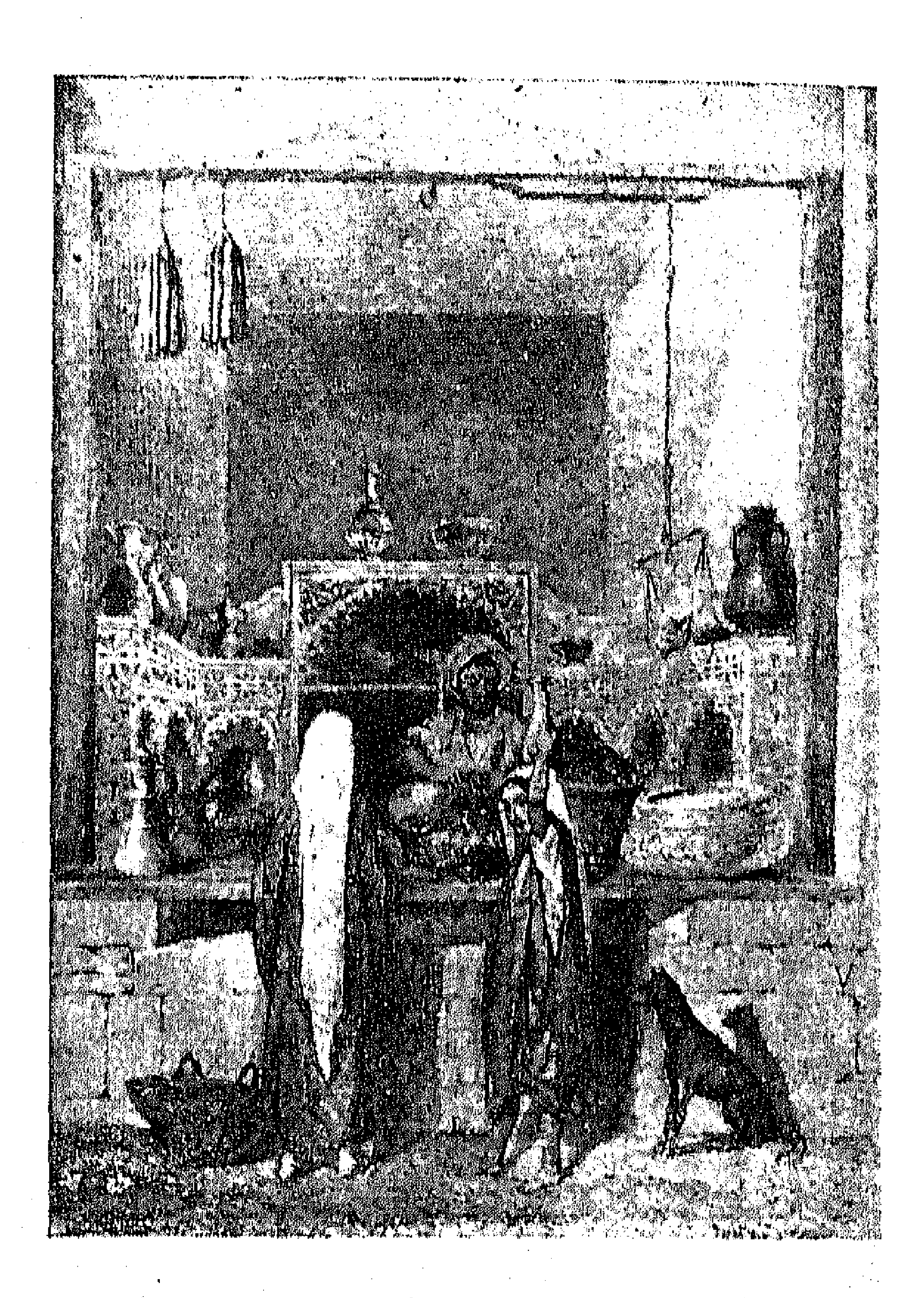
وكان لألوان الطعام المهيأ وغير المهيأ حوانيت خاصة بها ، فبائع اللحوم المشوية كان يسمى شواء ، وبائع الرءوس والأكارع كان يسمى رواساً ، وصاحب المطاعم كان يسمى طباخاً ، وبائع الأمعاء المحشوة (السجق) يسمى نقانقياً ، وبائع الهريسة يسمى هراثسياً .

ولم تسلم هذه الأطعمة من الغش الذى كان من عمل المحتسب أن يكشفه ويؤاخذ أصحابه عليه . وكانت طرقهم فى الغش مما يحير العقول ، ولكنها لم تخف على المحتسبين الذين كانوا يعرفون فنونها ويبالغون فى العقوبة عليها . ففى القرن السادس

الهجري . وفى مصر والشام ، كان الرواسون يخلطون رءوس المعز بالضأن ، وكان الطباخون يخلطون لحوم الإبل مع لحوم البقر ، وكان النقانقيون يغشون النقانق فيحشونها باللحوم الواقعة الهزيلة ، وكان الحلوانيون – أو بائعو الحلوى – يغشونها بطرق كثيرة ، فمنهم من يمزج عسل النحل برُبّ الكرم ، ومنهم من يمزج عسل القصب بعسل التمر .

وإذا كنا اليوم نميز أنواع اللحوم المذبوحة بعلامات مميزة تسمى الأختام ، فلكل من لحوم الضأن والأبقار والإبل سمات خاصة بها تسمها إدارات المذابح قبل تداولها فى الأسواق ، فإن ذلك التمييز ليس جديداً على مجتمعاتنا الحديثة ؛ فقد شاهد العراق والشام ومصر ذلك من بضعة قرون . . . حيث كانت لحوم المعز تنقط بالزعفران لتتميز من غيرها من اللحوم

وقد كان للمحتسب وعرفائه ، والموظفين تحت يديه ، سلطان كبير على الأطعمة ، وكان يتسع اختصاصه فى ملاحظتها والرقابة عليها إلى حدٍ بعيد ، وكان من حقه أن يختبر الحلوى وهو واقف بباب بائعها ليعرف غشها بما اجتمع لديه ولدى عرفائه من وسائل المعرفة والخبرة ؛ فلم يكن فى تلك الأيام « معمل كيميائى » للتحليل وبيان الفساد والغش فى المأكول والمشروب ؛ وإنما كان المحتسب نفسه معملا متنقلا



دكان من دكاكين القاهرة فى أول القرن التاسع عشر

للتحليل بالوسائل المعروفة فى عصره . ويروى لنا عبد الرحمن الشيزرى كيف كان المحتسب يعرف اللحم عند الجزار أو القصاب إن كان مذبوحاً أم ميتة . فهو يلقيه فى الماء ، فإن رسب فيه فهو مذبوح ، وإن لم يرسب فهو ميتة . كما يروى لنا طريقة الكشف عن البيض المذر — أعنى الفاسد — بأن يطرح فى الماء ، فإذا كان مذراً طفا على وجه الماء ، وإذا كان صحيحاً رسب .

وكان مألوفاً جداً فى حوانيت الطعام والمآكل أن يقف الناس على أبوابها انتظاراً لتهيئتها ، فلا يجد الناس بأساً أن ينتظروا دقائق تسوى فيها الفطيرة ، أو تقلى الزلابية ، أو يشوى اللحم . ولكن منظراً كان يثير العجب فى القاهرة الفاطمية والأيوبية وهو منظر النسوة وهن جالسات على أبواب القطانين — أو المنجدين — ساعات طويلة ينتظرن أن يفرغ القطان من ندف القطن لفصل البذور عنه ، وكثيراً ما كان يتعمد الرجل من هؤلاء القطانين أن يطيل الزمن فى عملية ندف القطن حتى يتمتع بوقت أكثر مع النساء صاحبات القطن ويقضى فى التحدث إليهن وقتاً طويلا . . .

ولم تستأثر حوانيت القطانين بهذه الظاهرة التى كان يفطن المحتسب إليها للقضاء عليها ، بل كانت حوانيت الكتانين

والبزازين والصاغة مجمعاً طيباً مزدحماً للنسوة اللائى كن يقضين فى هذه الحوانيت زمناً طويلا .

وفى أوائل القرن التاسع عشر زار القاهرة مستشرق إنجليزى هو المستر إدوار وليام لاين ، وطاف بكثير من ألوان المجتمع فيها ، ولم يفته أن يجول جولة بين حوانيت القاهرة ليشهد ما يباع فيها وطريقة المجتمع القاهرى فى البيع والشراء ؛ ولم يفته بالطبع أن يلاحظ مناداة الباعة على ما يبيعون بعبارات تغرى النفس بشرائها والإقبال عليها ؛ فينادون على الجميز بهذا النداء الجذاب : « جميز يا عنب » ؛ وينادون على الترمس بقولهم : « ترمس امبابة يغلب اللوز » ؛ وينادون على البرتقال بقولهم : « عسل يا برتقال عسل » ! وينادون على أزهار الحناء بهذه العبارة الجميلة المسجوعة : « روايح الجنة يا تمر حنة ! »

* * *

والآن وقد جلنا جولة سريعة بين ألوان من الخلق تجمعهم حاجات العيش من مطعم ومشرب وملبس ، أفلا يجدر بنا أن ننتقل بين المجتمع لنرى كيف كان يفصل فى خصوماته ، ويحكم فى منازعاته ؟ ولنخالط بعض المخالطة هؤلاء القضاة الذين يبدأ عهدهم فى الإسلام بالنبى عليه السلام الذى يقول فيه ربه : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم).

ولم يبدأ تعيين القضاة فى المجتمع العربى الجديد إلا فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب حين ولى بعض الصحابة قضاء المدينة والبصرة والكوفة ومصر . وعلى الرغم من بساطة مظاهر هؤلاء القضاة الأولين وعدم إحاطتهم بالرسوم والتقاليد التى دخلت نظام القضاء فى عصور متأخرة فإنهم كانوا يختارون من أعلم الناس وأفقههم وأكثرهم تديناً وأشدهم ميلا إلى الحق ومراعاة النصفة .

وعلى الرغم من هيبة القضاة الأولين واحترامهم فى مجالس قضائهم فقد كان يسمح للمتخاصمين أن يراجعوهم بتلك الصراحة والشجاعة الأدبية التى حاول الإسلام أن ينميها فى قلوب المسلمين . فلقد رووا أن « توبة الحضرمى » كان متلافاً مبذراً لماله ، لا يملك شيئاً إلا أنفقه ووصل به إخوانه ، فلما ولى قضاء مصر فى زمن هشام بن عبد الملك بدا له رأى أن يحجر على المبذر فى ماله ، وشاءت الظروف أن يرفع إليه غلام كان لا يبقى من ماله على شىء ، فقال له توبة : أرى أن أحجر عليك ؛ فقال الغلام : ومن يحجر عليك أيها القاضى ؟ والله ما نبلغ فى أموالنا عشر معشار من تبذيرك .

ولم يكن مجلس القضاء يعقد فى مكان خاص مستقل به كما هو الشأن اليوم ، وإنما كان القاضى يجلس فى منزله للحكم

أولا ، ثم انتقلوا بعد ذلك إلى القضاء فى المساجد . وفى العصر العباسى نجد القضاة يشتد نفوذهم فلا يعقدون مجالس القضاء فى حضرة الوالى ، ولكننا نرى الوالى — وهو ممثل الخليفة السياسى ونائبه — ينتقل بنفسه ليحضر مجلس القاضى . وقد بلغ من اعتداد بعض القضاة بأنفسهم ومراكزهم أنهم لم يكونوا يقومون من مجلسهم تحية للوالى أو الأمير إذا دخل .

وكانت هيئة المحكمة تنعقد بقاض واحد لا يجلس معه أحد، وأذكر أن صاحب البريد حاول أن يجلس بجوار أحد قضاة مصر فى عصر المأمون ، فأخرجه القاضى من مجلسه قائلا : هذا مجلس أمير المؤمنين ، وليس لأحد أن يجلس فيه إلا بإذنه. وكان مجلس القضاء يشهد كل يوم للقضاء ألواناً من الناس يعرضون شكاواهم ، ويتقدمون برقاع فيها أسماؤهم وأسماء خصومهم ويناولون هذه الرقاع إلى كاتب القاضى ، الذى يناولها بدوره إليه .

ولم يكن القاضى أول الأمر يتميز بزى مخصوص أو علامة خاصة ، فلباسه لا يختلف عن لباس العلماء والفقهاء فى وقته ، إلا أن الدولة الفاطمية فى مصر رسمت للقضاة أزياء وعمائم خاصة ، ومراكب من البغال النفيسة المساوية فى قيمها للعتاق من الخيل .

وكانت رتبة القاضى فى مصر الفاطمية أجل رتب أرباب العمائم وأرباب الأقلام ، وكان يجلس يومى السبت والثلاثاء من كل أسبوع فى الزيادة التى أضيفت إلى جامع عمرو بن العاص على طراحة ومسند من الحرير ، وبين يديه خمسة من الحجاب وأربعة من الموقعين ، ويملى القلم الذى يكتب به من دواة محلاة بالفضة محمولة إليه من خزائن القصور الفاطمية وموضوعة على كرسى خاص يسمى كرسى الدواة .

وكانت بغلة القاضى الشهباء من المشاهد التى تراها القاهرة الفاطمية فى شوارعها ودروبها ، ولا يركب البغال الشهب من أرباب الدولة غير القاضى ؛ وهى مسرجة بسرج ثقيل محلى ، وراءه دفتر من الفضة مبطن بالحرير .

وقد اتخذ الفاطميون للقضاء رسوماً وتقاليد فى جلسة القاضى وزيه ونوابه وحجابه وتصرفه ومجلسه ووقفة الخصوم والشهود أمامه ؛ وكانت هذه الرسوم تراعى فى دقة وضبط ، فلا يسمح بالإخلال بها بحال من الأحوال .

وكانت عمائم القضاة فى مصر الفاطمية والأيوبية والمملوكية تتميز باتخاذها من شاشات كبار غاية الكبر ، وكان بعضهم يرسلون بين كتفيهم ذؤابة يبلغ بها الطول أن تصل إلى قربوس سرج الدابة . . . ومنهم من يتخذ الطيلسان الفائق ، ويلبس

فوق ثيابه دلقا متسع الأكمام طويلها مفتوحاً . ولما صار لكل مذهب من المذاهب الأربعة قاض خاص به رأينا أن هيئة ملابسهم ، وشكل عمائمهم يختلف باختلاف مذاهبهم ، حتى يتميز القاضي الحنفى مثلا من قاضى الشافعية .

وفى العصر المملوكى بمصر نرى أن قاضى القضاة يجلس فى دار خاصة بالقضاء هى دار العدل ، بعد أن أصبحت المساجد مكاناً غير ملائم للفصل بين الناس فى منازعاتهم ، ومن ذلك الحين أصبحت للقضاة دور خاصة ، إلى أن وجدنا المحاكم على اختلافها من شرعية وأهلية ومختلطة تبنى لها أبنية خاصة . ورأينا فى العصر المملوكى أن السلاطين أنفسهم كانوا يجلسون فى مجالس القضاء مع القضاة باعتبارهم أولياء الأمر الشرعيين الذين يستمد القضاة منهم ولاية القضاء . . وقد كان السلطان الظاهر بيبرس ، والأشرف بن قلاوون والناصر محمد بن قلاوون يجلسون للقضاء وعن يمينهم قضاة المذاهب الأربعة ، وعن يسارهم كاتب السر وناظر الجيش وجماعة من الموقعين ، فيكونون شبه دائرة .

ولم يكن جلوس سلاطين المماليك للقضاء شيئاً غريباً ولا جديداً على المجتمع العربى ، ألم يجلس المأمون العباسى يوماً للقضاء ، فتقدمت إليه امرأة عليها هيئة السفر وفى ثياب رثة ،

فأخذت تشكو إليه فى شعر مؤثر رقيق أوله :

ياخير منتصف يهدى له الرشد ويا إماماً به قد أشرق البلد

فلم تكد تفرغ منه حتى رد عليها بشعر يعلنها فيه بنظر مسألتها فى جلسة مقبلة قائلا :

والمجلس السبت إن يقض الجلوس لنا

ننصفك منه وإلا المجلس الأحد

ثم ينعقد مجلس القضاء يوم الأحد — كما تذكر تلك الرواية الأدبية الشائقة — فينتصف لها المأمون من خصمها وولده العباس . . .

وكثيراً ما كان يلجأ القاضى إلى عمل مما يشبه المباحث الجنائية اليوم وهو فى مجلسه بالقضاء ؛ ألم يختصم رجلان إلى القاضى إياس بن معاوية وهو قاض على مدينة البصرة لعمر بن عبد العزيز ؛ وكانت الخصومة على مُطرف خز ، وأنبجانى — والأنبجانى أبخس قيمة وأحط نوعاً من الخز — فادعى كل واحد منهما أن مطرف الخز له ، وأن الأنبجانى لصاحبه ، فدعا إياس بمشط وماء ، فبل رأس كل واحد منهما ، ثم قال لأحدهما : سرح رأسك ؛ فسرحه ، فخرج فى المشط عفر المطرف ، وفى مشط الآخر عفر الأنبجانى ، فقال القاضى : يا خبيث ! الأنبجانى لك ! فأقر صاحبنا بذلك ، ودفع مطرف

الخز إلى صاحبه .

ولم يكن فى القضاة الأولين — أعنى فى العصور الأولى للإسلام — تزمت ولا تنطع ، على الرغم من هيبتهم وجلالتهم وإجلال المجتمع لهم ؛ فكانوا فى الأعم الأغلب ناساً من الناس يمازحون بما لا يخرج بالمزاح إلى كثرة منه تميت القلب ، ويتندرون بما لا يسقط كرامتهم أو يخل بمروءتهم وهيبتهم ؛ بل كان فى بعضهم من بداهة الفكر ، وسرعة الخاطر ولطف الحجاج والمحاورة ما يفحم به أحد الخصوم .

فقد أتى رجل إلى صاحبنا إياس القاضى وسأله : هل ترى علىّ من بأس إن أكلت تمراً ؟ قال : لا ، قال : فهل ترى علىّ من بأس إن أكلت معه كيسوما ؟ قال : لا ، قال : فإن شربت عليهما ماء ؟ قال : جائز ، قال السائل : فلم تحرم السكر وإنما هو ما ذكرت لك ؟ . قال إياس : لو صببت عليك ماء هل كان يضرك ؟ قال : لا ، قال : فلو نثرت عليك تراباً هل كان يضرك ؟ قال : لا ، قال : فإن أخذت ذلك فخلطته وعجنته وجعلت منه لبنة عظيمة فضربت بها رأسك هل كان يضرك ؟ قال : كنت تقتلنى ! قال : فهذا مثل ذاك . . .

على أن أعجب ما أخذ به خصم فأصبح محكوماً عليه بعد

أن كان طالباً الحكم له ، هو ذلك الدرس القضائى البديع الذى أعطاه أبو حازم قاضى الخليفة المعتمد لرجل جاء أمامه ، يقاضى أباه ويطالبه بدين له عليه ، فأقر الأب بالدين ، وأراد الابن حبس والده . فقال القاضى : هل لأبيك مال ؟ قال ابنه : لا أعلمه ، قال : فمذ كم داينته بهذا المال ؟ قال : منذ كذا وكذا ، قال القاضى : قد فرضت عليك نفقة أبيك من وقت المداينة . . . فحبس الابن ، وخلى سبيل الأب .

ولم تذكر لنا كتب الأدب والتاريخ اسم ذلك القاضى الظريف بمدينة البصرة ، الذي أحضر رجل امرأته أمامه لخصومة بينهما ، وكانت المرأة حسنة إذا انتقبت ، قبيحة إذا أسفرت عن وجهها — أي أن برقعها كان يخلع عليها شيئاً من الحسن ويخفى شيئاً من القبح ، فمال القاضى لها على زوجها ، وقال : يعمد أحدكم إلى المرأة الكريمة فيتزوجها ثم يسىء إليها ! ففطن الرجل لميل القاضى نحوها . . . فقال : أصلح الله القاضى ! قد شككت فى أنها امرأتى ؛ فمرها تسفر عن وجهها ليستبين لى ، فوقع ذلك بوفاق من القاضى الذي قال لها : أسفرى رحمك الله ؛ فسفرت عن وجه قبيح كان يستره النقاب.. فقال القاضى لما نظر إلى قبح وجهها : قومى عليك لعنة الله ! كلام مظلوم ووجه ظالم !

ولعلها نادرة من تلك النوادر التى وضعها الواضعون فى عصور من المجتمع العربى ، ليتناقلها الناس ويسمروا بها ، أو لعلها واقعة تصور لنا بعض ما كان عليه بعض قضاة تلك الأزمان . . .

* * *

وما دام القول قد بلغ بنا إلى النوادر والأسمار التى كان يسمر بها الناس فى مجتمعاتهم فلا بأس أن نعرج قليلا على جماعة من الناس كانوا قد وقفوا أنفسهم على حكاية الأخبار والنوادر والمضاحك ، ولم يخل منهم مجتمع عربى منذ القرن الرابع الهجرى ، حتى لقد كانت تزدحم بهم المساجد والطرقات والدروب . وكان يجتمع إليهم الرجال والنساء فيبذلون لهم من الأموال ما جعل هذه الصناعة حرفة مربحة لأصحابها . . . هؤلاء هم القصاص أو القصاصون الذين كان عملهم فى القرون الثلاثة الأولى للإسلام تذكير الناس ووعظهم بقراءة القرآن لهم لما فيه من أحسن القصص ، وبحكاية قصص الأنبياء التى كان يجد الناس فى الاستماع إليها مرضاة لنفوسهم . ولهذا لم يكن هناك حرج بادئ الأمر أن يجلس القاضى فى المسجد يعظ ويذكر ويدعو ويقرأ القرآن ، ولا يتجاوز ذلك من ذكر الأخبار والأساطير الدينية والنوادر التى أصبحت فيما بعد عمل القصاص

الأول . وقد استمر القصاص بمعناه الديني والوعظي قائماً في ديار المسلمين إلى عصور متأخرة ، فنجد الإمام السبكي – وهو من علماء مصر في القرن الثامن – يذكر القاص ويعرفه بأنه هو الذي يجلس في الطرقات يذكر شيئاً من الآيات والأحاديث وأخبار السلف . ويشترط فيه أن يقول ما يفهمه العامة ويشتركون فيه من الترغيب في الصلاة ، والصوم ، والزكاة ، ولا يتعمق معهم في أصول الدين وفنون العقائد ، وأحاديث الصفات الإلاهية فإن ذلك – عند الأمام السبكي – يجرهم إلى ما لا ينبغي .

أما القصاصون الذين سلكوا طريق الحكايات والنوادر ، فخرجوا بالقصص الدينية عن غرضها الوعظي ، فقد اتجهوا إلى تسلية العامة وبعث لذة الاستماع فيهم عن طريق اختراع الحكايات ، وخلق الأساطير ، وإضفاء الخيال على قصص الأنبياء والسالفين حتى يجد فيها المستمعون ما يثير اهتمامهم . ولما اتجهت القصص هذا الاتجاه الفني الذي لا يساير أغراض الدين ، ولا يرضى رجاله رأينا الخلفاء يمنعون القصاص من القعود في المساجد ، ضنا بحرمة بيوت الله أن تكون مجتمعاً للهو والتسلية .

وقد بلغ من عبث هؤلاء القصاص بعقول العوام واستخفافهم

بهم أنهم كانوا يحتالون على جمع المال منهم بأى طريق ، وقد قسموا أنفسهم إلى معسكرات تتفق فى النهاية على أخذ المال من السامعين مهما اختلفت مذاهبهم ؛ فقد كانوا يقعدون فى الأسواق العراقية فى القرن الرابع ، فيذكر فريق منهم فضائل على بن أبى طالب ليرضوا المستمعين من الشيعة ، ويقص فريق منهم فضائل الصديق أبى بكر ليرضوا أهل السنة من سامعيهم ، وفى النهاية يخرجون من هذه الصفقة الماكرة والحملة المدبرة بأوفى نصيب . .

ويروى لنا صاحب « مروج الذهب » حكاية « ابن المغازلى» الذى كان ببغداد فى عصر الخليفة المعتضد العباسى ، فكان يتكلم على الطريق ، ويقص على الناس بأخبار ونوادر ومضاحك ، ويثنى عليه المسعودى ويصفه بنهاية الحذق فى صناعته ، فلا يستطيع من يراه ويسمع كلامه أن يمسك نفسه من الضحك . ولقد وقف ابن المغازلى يوماً على باب الخاصة بقصر الخلافة يضحك الخدم بذكر حكاياتهم . . فأعجب خادم بحكايته ، وشغف بنوادره ، وذهب إلى الخليفة المعتضد يذكر له نبأ هذا القاص البارع ، ويصف لمولاه إبداعه فى تقليد الأعرابى والمكى والتركى والنحوى والزنجى وما إليهم من ضروب الخلائق . . ويصف للخليفة نوادر القصاص بأنها تضحك الثكول ، وتصبى

الحليم . . فلم يملك المعتضد نفسه من أن يستدعى إليه ابن المغازلى ليقف بنفسه على براعة قصصه ، وجودة مضاحكه ؛ وفى الحق أنه استطاع — بعد جهد جهيد ، وبعد صفعات موجعة ، وبعد برودة من المعتضد القاسى السفاك للدماء — أن يضحك المعتضد حتى جعله يفحص الأرض برجليه من شدة الضحك .

ولم يكن المعتضد العباسى هو الخليفة الوحيد الذى استمع إلى قصاص كبير كابن المغازلى ، ففى القرن الحادي عشر الهجرى — وبعد فتح السلطان سليم العثمانى لمصر بقرن من الزمان — نرى السلطان أحمد الأول العثمانى يستمع فى قصر الخلافة بالقسطنطينية إلى الشيخ داود العطار أو المناوى القصاص المصرى الذى كتب قصة « حرب العجم » أو « لعب النار » ليصور بها الحرب الصليبية التى وقعت حوادثها فى مدينة الإسكندرية فى القرن الثانى عشر الميلادى ؛ وكان داود العطار هذا من شيوخ القصاص فى مصر العثمانية ، وقد رأس فريق خيال الظل المصرى الذى سافر إلى عاصمة بنى عثمان ليشترك فى حفلات زواج الوزير التركى محمد باشا من كريمة السلطان أحمد .

ولسنا اليوم بسبيل دراسة للقصص الشعبية ورجالها ، فذلك

يبعد بنا عن هدفنا من تسجيل ملامح خاطفة لصور من المجتمع العربي . ولكن أمراً لا ينبغى إهماله هنا ، وهو أن هؤلاء القصاص قد لفتوا أنظار المستشرقين الذين بدأوا يطأون بلاد الشرق العربي منذ اتصل الشرق بالغرب ، سواء أكان ذلك فى العصور الوسطى ، أم فى العصور الحديثة ، ولم يفت الدكتور جوستاف لوبون وهو يزور مصر والشام وبلاداً من الشرق العربي فى منتصف القرن التاسع عشر أن يشير إلى هؤلاء القصاص ، وأن يعد قصصهم العجيبة من أهم وسائل التسلية عند المجتمع العربي ، وخاصة عند ما سمع أحدهم فى حى من أحياء مدينة يافا الفلسطينية ، نضر الله ذكريات ماضيها الجميل . . .

ولقد وصف رائد آخر من رواد الشرق العربي فى العصور الحديثة منظر احتشاد جماعة من العرب حول قصاص بارع ، أخذ يلعب بعقولهم ، وينتقل بهم من موقعة إلى موقعة ، فيجعلهم وهم فى نشوة من تواجد السماع يخيل إليهم أنهم فى حرب حقيقية وأنهم بين صفوف الجند المقاتلين ، وأمام مشهد الأبطال المحاربين فإذا أزمت الأمور فى حرب قصصية رأيت أنفاسهم تنقطع ، فلا يستردونها إلا إذا نقلهم القاص إلى مشهد جديد . . .

* * *

على أن هؤلاء القصاصين والمحاكين لم يكونوا الوسيلة الوحيدة

للتسلية فى المجتمع العربى ، فقد ذكر لنا المؤرخ ابن خلدون براعة المصريين فى تعليم الحمر الإنسية والحيوانات العجم والطيور مفردات من الكلام والأفعال يستغرب حدوثها ، ويعجز أهل المغرب عن فهمها ؛ ويقول عما بلغه أهل مصر فى ذلك إنها غاية لا تدرك . وكان هؤلاء العارضون للحيوانات المعلمة المدربة يقيمون لها المشاهد فى الأسواق ، والأماكن العامة والطرق ، فيجتمع الناس حولها ليشهدوا عجائب أفعالها ويسمعوا غرائب من مفردات أقوالها . وكان هؤلاء العارضون يجمعون من هذه المشاهد أموالا تعد من وسائل كسبهم . وكانت سهولة التقليد من هذه الحيوانات ترجع إلى أصول طبائعها من ناحية ، وإلى براعة المدربين لها من ناحية أخرى ؛ فكان القرد أخف هذه المشاهد تقليداً بحكم طبعه ، وكان الحمار الأليف أعجبها وأشدها إثارة للدهشة بحكم ما تعورف من غبائه . . . ولعل صاحب المعزة والكلب والقرد اليوم هو بقية مما كان يجرى فى مصر فى العصر المملوكى وشهده ابن خلدون . . .

بعض الأمكنة فى بعض الأزمنة

البيوت - القصور - الشوارع والدروب - الحمامات -
الفنادق - السجون - المدارس - ستنابات إلخ

قلّ أن يقع قارئ التاريخ الإسلامى على وصف يشفى النفس للبيوت التى كان يسكنها عامة الناس وأوساطهم على مر العصور ، فلقد كان الإغفال نصيب هذه البيوت غالباً كما كان نصيب أصحابها :

وإذا نظرت إلى الديار وجدتها تشقى كما تشقى العباد وتسعد

على حين لا تكاد تخلو كتب التاريخ والحضارة والخطط من وصف القصور التى افتنت فيها الريازة العربية الإسلامية منذ غادر العرب مضاربهم وخيامهم فى الصحراء إلى أن تأنقوا فى تشييد الدور ، وجلبوا لها من ألوان الذوق فى البناء ، والترف فى الأثاث ما يكاد يظنه المرء ضرباً من الخيال .

وتبدو لنا أول موازنة بين البيت البدوى المبسط وبين القصر المنيف من قول زوج الخليفة معاوية الأموى حين نقلها من البادية إلى عاصمة الخلافة الجديدة :

لبيت تخفق الأرياح فيه أحب إلى من قصر منيف

ولن نطيل القول فى قصور الخلفاء بدمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة وغرناطة وغيرها من حواضر الإسلام ، غير أن أعمدة الرخام المزخرفة فى قصر الوليد بن عبد الملك بدمشق ، وبرك الزئبق فى قصر الطولونيين بمصر ، وبركة الرصاص التى يجرى حولها نهر من معدن الرصاص المجلو أحسن من الفضة فى قصر الخليفة المقتدر بالله العباسى ببغداد ، وقصر الزهراء بقرطبة الذى بناه عبد الرحمن الناصر وأودع فيه من عجائب البناء والهندسة ما يحير العقول ، وقصر الحمراء فى غرناطة الذي بناه أحد ملوك بنى الأحمر وأنشأ فيه بركة السباع التى تربض فى وسطها أسود من الرخام تمج الماء من أفواهها على شكل جميل — هذه الحفنة من القصور الساحرة الموزعة فى بقاع المملكة الإسلامية على عصور مختلفة تجلو لنا كيف بلغ العرب فى حضارتهم مبلغاً يرينا فى جلاء ووضوح فرق الانتقال، والتبدل من حال إلى حال .

ولقد بلغت قصور العباسيين فوق فخامتها وضخامتها مبلغاً من السمو والارتفاع ، الذى صوره لنا الشاعر البحترى وهو يصف قصر «الكامل» الذى بناه الخليفة المعتز بالله بن المتوكل؛ فالبحتري يزعم لنا فى خيال شعرى جميل أن الحمام قد ذعر وهو يترنم فوق ذلك القصر الشاهق ، لأنه أطل من أعلاه فرأى



سقاءون يحملون الماء على ظهورهم وعلى ظهور المطايا

منظراً هائلا خطر المزلة ، بعيد المنحدر .

وأحمد الظن فى القارئ الكريم أنه لا يضيق بالأبيات الجميلة التى قالها البحترى فى صفة ذلك القصر ، فإن إيرادها هنا بنصها أحفظ لنا من حلها بالنثر ، وأبين فى جلاء الصورة التى نريد أن نعرض بها قصراً بغدادياً فى القرن الثالث الهجرى . قال :

لما كملت روية وعزيمة ... أعملت رأيك فى ابتناء الكامل
وغدوت من بين الملوك موفقاً ... منه لأيمن حلة ومنازل
ذعر الحمام وقد ترنم فوقه ... من منظر خطر المزلة هائل
رفعت لمخترق الرياح سموكه ... وزهت عجائب حسنه المتخايل
وكأن حيطان الزجاج بجوه ... لجج يمجن على جنوب سواحل
وكأن تفويف الرخام إذا التقى ... تفويفه بالمنظر المتقابل
حبك الغمام رصفن بين منمر ... ومسير ومقارب ومشاكل
لبست من الذهب الصقيل سقوفه ... نوراً يضيء على الظلام الحافل
فترى العيون يجلن فى ذى رونق ... متلهب العالى أنيق السافل

* * *

ويبدو أن البيوت فى بعض البلاد العربية كانت تميل إلى العلو والارتفاع لتكونها من طبقات بعضها فوق بعض ؛ فقد كانت مدينة الإسكندرية مثلا فى القرن السادس الهجرى تمتاز بعلو دورها علواً لفت نظر الرحالة ابن جبير الأندلسى ،

حتى ليقول فى وصفها : « ما شاهدنا بلداً أوسع مسالك منه ، ولا أعلى مبنى » . وقد أصدر ابن جبير حكمه على الإسكندرية وهو وافد إليها من الغرب قبل أن يدخل القاهرة التى كانت تتكون دورها من طبقات تصل إلى الثمانية ؛ وكانت كل دار تزدحم بالسكان الذين قد يبلغون فى البيت الواحد مائتين . إلا أن الفسطاط كانت تصل فيها طبقات البيوت إلى أربع عشرة طبقة كما ذكره الرحالة الفارسى ناصر خسرو الذى زار مصر فى القرن الخامس الهجرى وفى العصر الفاطمى ، وأقام فيها بضعاً من السنوات مكنته أن يسجل بدقة وملاحظة كل ما رآه فى مصر الفاطمية .

ولم يفقد البيت العربى — على اختلاف الزمن بأحواله وانتقاله — تلك الروح الكريمة المضيافة التى بثها العرب الفاتحون فى أبنائهم المنتشرين فى كل أرض ، والتى كانت أعز ما ورثته البادية إياهم ، على أن هذه الضيافة كانت تختلف تبعاً لما يطرأ على الناس من ظروف الحياة والبيئة ، إلا أنها لم تعدم أن تجد لها مظهراً حتى حين أنشئت الفنادق وخصصت لنزول المسافرين فيها . ولا ندعى أن الضيافة العربية فى البيوت التى شيدتها الحضارة الإسلامية كانت تبلغ من المثالية النادرة تلك الروح التى تحدثنا بها النوادر والأخبار عن أمثال حاتم

الطائى الذين كانوا يقدمون للضيف أعز ما يملكون ، وينحرون الناقة السمينة الكوماء التى لا يملكون فى البيت غيرها خشية أن ينحرهم أعداؤهم إذا رموهم بالبخل . لاندعى ذلك ولكننا نؤكد — مستقرئين كثيراً من الأمثلة — أن الكرم كان سائداً فى البيوت العربية من أيام الأمويين فى دمشق حتى أيام العثمانيين فى القاهرة ، بل نجد صوراً من الضيافة الكريمة فيما كتبه المستشرق «إدوار وليام لاين» عن قاهرة القرن التاسع عشر. وإذا كان العرب يكنون عن الكرم بكثرة الرماد إشارة إلى كثرة الطبخ التى تستلزم كثرة الأضياف ونزول الطراق ، فإن المؤرخ الجبرتى يصف لنا بيوت الأعيان فى مصر فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر الهجريين ، فيذكر أنه كان من سنن مكارم الأخلاق التى كانت لأهل مصر ولا توجد فى غيرها أن فى كل بيت من بيوت جميع الأعيان مطبخين ، أحدهما أسفل رجالى ، والثانى فى الحريم ، فيوضع فى بيوت الأعيان السماط فى وقتى العشاء والغداء ، مستطيلا فى المكان الخارج ، مبذولا للناس ، ويجلس بصدره أمير المجلس ، وحوله الضيفان ومن دونهم مماليكه وأتباعه ، ويقف الفراشون فى وسطه يفرقون على الجالسين ، ويقربون إليهم ما بعد عنهم من القلايا والمحمرات ولا يمتنعون فى وقت الطعام من يريد الدخول أصلا ، ويرون أن

غرفة الضيوف فى بيت عربى بالقاهرة

المنع من المعايب . ولهذا كان بعض أصحاب الحاجات وطلاب المسائل ينتظرون وقت الطعام ليدخلوا واثقين من أن الحجاب لا يمنعونهم ، فيدخل صاحب الحاجة حينئذ ، ويأكل وينال غرضه من مخاطبة صاحب البيت . وكان الأمراء وأصحاب البيوت يعرفون أصحاب الحاجات هؤلاء ، لأنهم لا ينصرفون بعد الطعام مباشرة ، وإنما ينتظرون حتى يطلبهم صاحب البيت من أمراء المماليك والأعيان فيسألهم عن حاجاتهم[1] ويقضيها لهم .

وبعد الجبرتى بقليل من الزمن يصف لنا المستشرق (لاين) بيوت الضيافة هذه ، بل يصف لنا بيوت الطعام ، وكيفية الجلوس حولها والانصراف منها وغسل الأيدى قبل الأكل وبعده ، ويصف لنا كذلك فى دقة ملاحظة تلك الأباريق والطسوت النحاسية التى كانت معدة لغسل الأيدى والأفواه ، كما يصف لنا صينية الطعام النحاسية المنقوشة أو المكفتة بالفضة وتحتها ذلك الكرسى من الخشب الذى يحملها ، والذى افتن فيه الصانع فحلاه بالحفر والزخارف ، ورصعه أو طعمه بالصدف والعاج وما إليهما . . .

ولدينا أكثر من دليل على أن بيوت العامة كانت متلاحمة متلاصقة على نحو ما نراه الآن فى الأحياء الوطنية التى ترتد تاريخاً إلى زمن قديم ، على العكس من قصور الخلفاء والأمراء

التى كانت تباعد ما بينها مساحات واسعة من حدائق وبساتين كما كان الشأن فى قصور الفاطميين بمصر ؛ وكانت الشوارع – على العموم – ضيقة وملتوية فى كثير من أنحاء المملكة الإسلامية ؛ فلم يراع فى تخطيطها تلك السعة التى تتطلبها الآن ضرورات صحية ، ولم يراع فيها ذلك التعامد فى التقاطع الذى تمتاز به شوارع الدنيا اليوم فى تصميم المدن الحديثة . ولكننا نستطيع أن نستثنى مدينة «سر من رأى» التى بناها المعتصم العباسى فقد وسع المتوكل شوارعها إلى حد زاد فى رقعة المدينة نفسها ، وجعل عرض الشارع الأعظم فيها مائتى ذراع ، وقدر أن يحفر قناتين على جانبى هذا الشارع ينصب فيهما الماء ، على أن المعتصم نفسه حين اختط هذه المدينة وسع فيها الشوارع والدروب – كما يذكر المسعودي المؤرخ – وأفرد أهل كل صنعة بسوق ، فبنى الناس ، وارتفع البناء ، واتصل العمران ، وتسامع الناس أن داراً جديدة للملك قد اتخذت فقصدوها وعمروا الأرض أكثر مما عمروها .

على أنه فى الوقت الذى اتسعت فيه شوارع سامرا « سر من رأى » كانت شوارع شيراز ضيقة أبلغ الضيق ، لا تتسع لسير دابتين بعضهما بجانب بعض ، وكان أهلها فى بلاء يعانونه من أجل ذلك . ولم تكن شيراز وحدها هى المنكوبة فى

شوارعها ، فقد وفد إلى مصر ابن سعيد المغربي في القرن السابع الهجرى وشاهد بعينيه ضيق مسالك القاهرة ، ووصف ذلك بنص عبارته قائلا : « . . . ثم تسير منه إلى أمد ضيق ونمر في ممر كدر حرج بين الدكاكين ، إذا ازدحمت فيه الخيل مع الرجالة كان ذلك ما تضيق منه الصدور وتسخن منه العيون ، ولقد عاينت يوماً وزير الدولة ، وبين يديه أمراء الدولة ، وهو في موكب جليل ، وقد لقى في طريقه عجلة بقر تحمل حجارة وقد سدت جميع الطرق بين يدى الدكاكين ، ووقف الوزير وعظم الازدحام ، وكان في موضع طباخين ، والدخان في وجه الوزير وعلى ثيابه ، وقد كاد يهلك المشاة ، وكدت أهلك في جملتهم ! وأكثر دروب القاهرة ضيقة مظلمة كثيرة التراب والأزبال ، والمبانى عليها من قصب وطين مرتفعة قد ضيقت مسلك الهواء والضوء بينهما ، ولم أر في جميع بلاد المغرب أسوأ حالا منها في ذلك ، ولقد كنت إذا مشيت فيها يضيق صدرى ويدركنى وحشة عظيمة حتى أخرج إلى بين القصرين . . . »

ولم تكن القاهرة المملوكية وحدها هى التى سخط منها وبرم بها الرحالة ابن سعيد المغربي وضاق بها صدره ، فقد ضاق بمدينة الفسطاط أيضاً ، التى يقول إن المسرة أدبرت عنه حين دخلها . . وقد لفت نظره فيها عدم استقامة شوارعها ، وبناء



حول المـائدة

بيوتها من الطوب الأدكن والقصب والنخيل طبقة فوق طبقة ، وحول أبوابها من التراب الأسود والأزبال ما يقبض نفس النظيف ويغض طرف الظريف . . .

وإذا كنا نلاحظ اليوم فى مدن مختلفة من القطر المصرى بعض الشوارع المسقوفة الضيقة فى الأحياء التجارية فإن ذلك ليس إلا بقية مما كان عليه الشأن منذ بضعة قرون ، فإن الرحالة الفارسى ناصر خسرو قد لاحظ ذلك فى قاهرة القرن الخامس ، ولاحظ أن بها أسواقاً وشوارع توقد فيها القناديل ، لأن ضوء الشمس لا يصل إلى أرضها بسبب تلك السقوف من الخشب ونسيج القنب « الخيش » الذى يتدلى الآن من سقوف بعض الشوارع التجارية ، فيذكرنا بالقاهرة التى رآها مؤرخ مسلم فى عصر الفاطميين . . .

وقد كان لهذه الدروب والشوارع حراس يقومون عليها بالليل والنهار ، وقد وضع الإمام السبكى من علماء مصر فى القرن الثامن الهجرى دستوراً لهؤلاء الحراس ، فشرط على الواحد منهم أن ينصح أهل الدرب ، ويُسهر عينه إذا ناموا ، وينبه النوام إذا اغتيلوا بحريق أو غيره ، ولا يدل على عوراتهم واليا ولا غيره . وهذا الشرط الأخير يذكرنا اليوم باصطلاح سر المهنة ، الذى فُرض أن يحافظ عليه من يستودعون أسرار الناس وأمورهم الخاصة

كالمحامين والأطباء .

ولم يحرمنا المستشرق « لاين » وصفه لشوارع القاهرة ودروبها فى أول القرن التاسع عشر وفى عهد محمد على باشا الكبير ؛ على أن العالم الفرنسى الدكتور « غوستاف لوبون » قد زار مصر فى منتصف القرن الماضى ، ولم يفته فى كتابه « حضارة العرب » أن يصف شوارع القاهرة بأنها — ككل مدينة شرقية — ضيقة ملتوية غير منتظمة ، فتكاد أطناف البيوت تتلاصق ، وخاصة فى الأحياء القديمة ، أما الأحياء الحديثة ، وهى التى اختطت فى عهد إسماعيل باشا فلم يجد المفكر الفرنسى فيها ما يكون موضعاً للمؤاخذة .

ولم أعثر على رحالة أو جوّاب التمس العذر لضيق شوارع المدن الشرقية أو العربية كما صنع الدكتور غوستاف لوبون.. فقد أوضح أن الحكمة فى ضيقها هى الاستكثار من الظل ، والاحتفاظ ببرودة الهواء فى مثل تلك الأجواء الحارة المشمسة ، ولعل ذلك يعلل لنا تلك الشوارع المسقوفة التى أشرنا إليها قبيل ذلك ، ولكنها كانت تحجب المطر أيضاً خشية أن يصل إلى الأرض فيعطل الحركة فى تلك الشوارع التجارية التى كانت تعد أسواقاً عظيمة القيمة .

* * *

والآن – بعد أن جلنا جولة فى شوارع ومسالك ودروب من المدن العربية والإسلامية – فقد وجب أن نعرج على حمام من تلك الحمامات الكثيرة المنتشرة فى بلاد كثيرة من الشرق العربى، لعلنا ننفض غبار الرحلة ، أو ننفض ذلك الغبار الذى كانت تعج به شوارع مصر وهواؤها إلى حد يخنق الأنفاس كما ذكره ابن سعيد المغربى وغيره من الرحالين . . . والحمام جديد على المجتمع العربى الذى أخذه عن الرومان واليونان . ولهذا يقول فيه ابن عمر : « الحمام من النعيم الذى أحدثوه » . ولقد أقبل العرب على الحمامات العامة الساخنة ، وخاصة فى عصر الحضارة والترف على الرغم مما ورد فى ذمها ، فقد روي أن الإمام علياً قال : « بئس البيت الحمام ! تكشف فيه العورات ، وترتفع فيه الأصوات ، ولا يقرأ فيه آية من كتاب الله» ولعل هذا هو السر فى تحرج المسلمين من دخول الحمامات زمناً ما ، بما أثير من نقاش حول إباحتها وكراهتها . ولعل هذا يفسر لنا قلة عدد الحمامات فى مصر الطولونية والإخشيدية . إلا أنها انتشرت بعد ذلك ، ولكنها لم تبلغ من الكثرة فى مصر مثلا ما بلغته فى بلاد الشام والعراق . فعلى حين كان فى بغداد بضعة آلاف من الحمامات العامة منذ القرن الثالث الهجرى ، وعلى حين كانت دمشق تزدحم بالحمامات الكثيرة التى ألفت فيها الكتب مثل

بيت من بيوت القاهرة فى العصر العثمانى

كتاب «عدة الملمات فى تعداد الحمامات» ليوسف بن عبد الهادى من رجال القرنين التاسع والعاشر — نرى أن عدد حمامات القاهرة فى القرن السابع الهجرى بلغ ثمانين حماماً فقط ، فى الوقت الذى كان فيه بالفسطاط أكثر من ألف حمام . . .

وأيا ما كان عدد الحمامات واختلافها فى كل قطر عربى ، فقد كان قيامها ظاهرة طريفة فى المجتمع العربى ، وكانت نيرانها ورخامها وقبـَّتـَهمها وأحواضها الساخنة وأبخرتها الحارة موضوعاً طريفاً للشعراء والكتاب ، وكان العرق المتصبب من رواد الحمام بسبب الحرارة مثاراً لقرائح الشعراء الذين يقول واحد منهم :

لم أبغ بالحمام طيب تنعم أفنى البكاء دموع عينى أجمعا
فبكيت فيه أسى بجسمى كله حتى كأن لكل عرق مدمعا !

والإشارة هنا إلى انبثاق العرق من كل مسام الجسم ، حتى كأن بكل عضو عيناً تبكى . . .

وإذا كانت الحمامات العربية أو الإسلامية على وجه العموم قد أضافت إلى فن الريازة « العمارة » العربية كثيراً من الغنى والجمال ، بما أبدعه فيها الفن الجميل من نقوش وزخارف وصور وتلوين زجاج وافتنان فى الأثاث والرياش ، فإن كثيراً من العادات والتقاليد قد نشأ حولها وقام بقيامها . . .

ولعل لصوص الحمامات كانوا طائفة من المجتمع العربى

لا يجوز إغفالها هنا ؛ فقد كانوا يلصون الثياب فى غفلة من قوام الحمام ، وكانت حوادث الزلق على أرض الحمام ، وحوادث السرقة من الكثرة بالحد الذى قيل فيه : « دعوتان مغفول عنهما عند دخول الحمام : سلمك الله من الزلق ، وحرس ثيابك من السّرّق ! » ، ولعل أطرف ما ذكر من السرق حادثة محمد « ابن سكرة » الشاعر الظريف ، الذى دخل الحمام فسرق مداسه ، فخرج منه حافياً ، فصار أشبه بالمتصوف الزاهد « بشر الحافى » ، فقال فى ذلك :

إليك أذم حمام ابن موسى … وإن فاق المنى طيبا وحرا
تكاثرت اللصوص عليه حتى … ليحفى من يطيف به ويعرّى
ولم أفقد به ثوبا … ولكن … دخلت محمدا فخرجت «بشرا»

أى دخلت محمدا فخرجت حافياً مثل بشر الحافى . . .

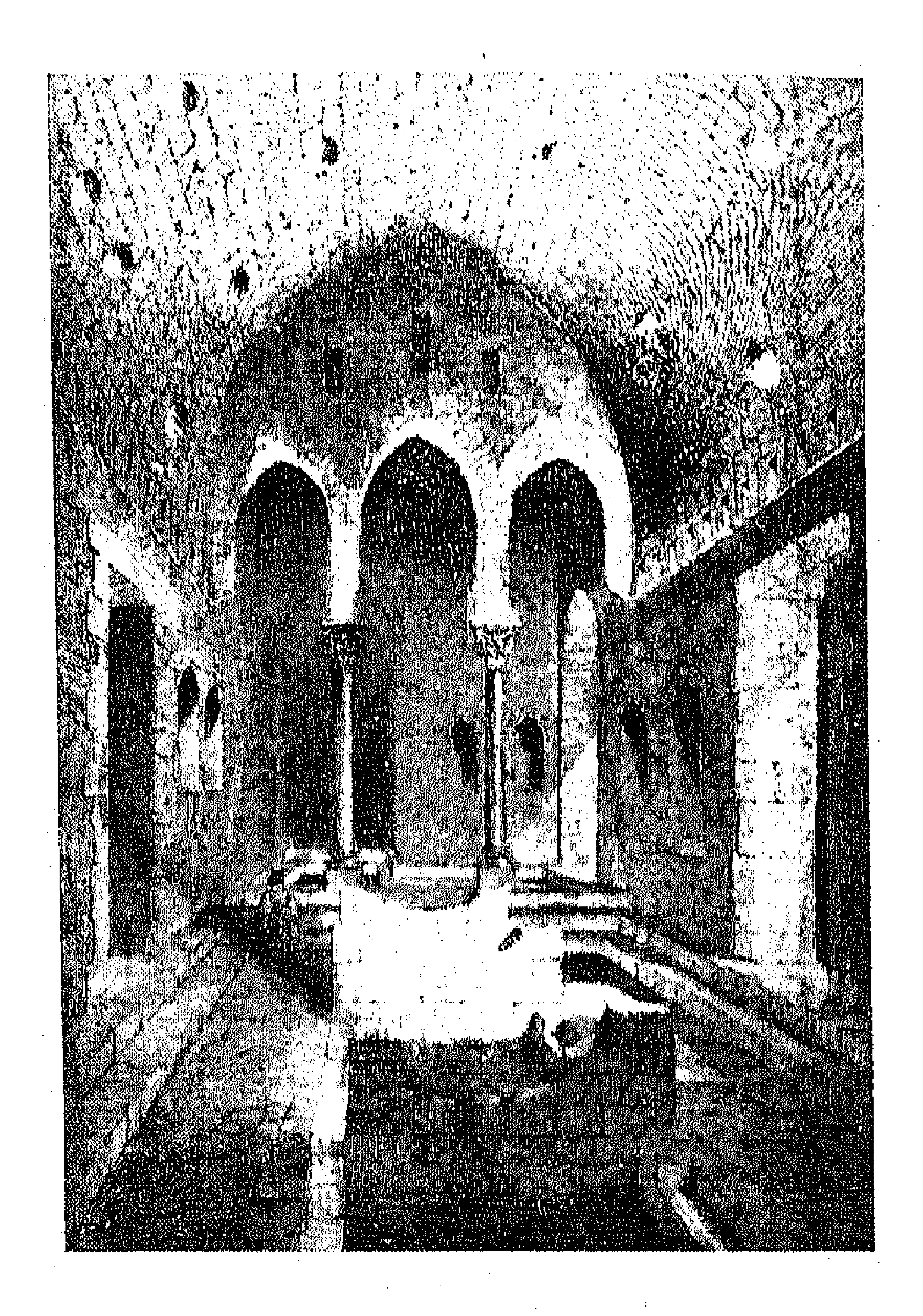
وكانت سرقة الملابس فى الحمامات موضوعاً لذيذاً للتندر والمداعبة بين الأدباء والشعراء ، فقد سرق شاش عمامة متولى دمشق وهو فى أحد حماماتها ، فكتب فى ذلك أديبنا وشاعرنا المصرى الظريف جمال الدين بن نباتة من رجال القرن الثامن الهجرى : « فما عبر المملوك فى عمره أحر من هذه الحمام ، ولا نكس فى رأسه العلية مثل هذه الأيام ! فيا للعواطف العربية ، ويا لمراحم النفوس الأبية ! فوالله لقد خف رأس المملوك من

الجهتين عقله وشاشه ، ولقد تعوض من تاج عمته العربية مخدة فراشه ! »

ولقد عرفت البلاد العربية الفنادق التى كان يأوى إليها المسافرون من بلد إلى بلد ، ولكنها لم تكن من العناية وتوفير أسباب الراحة على ما نعهده اليوم ، وكانت تسمى بأسماء أصحابها كفندق « أبى الثناء » الذى نزل فيه الرحالة الأندلسى ابن جبير فى زقاق القناديل ، على مقربة من جامع عمرو بن العاص بمصر العتيقة ، وقد وصف الرحالة الحجرة التى نزل فيها بالكبر ، وأنها كانت على باب الفندق المذكور ، يعنى أنها مشرفة على مدخل الفندق لا داخلة فى بنائه ، ولما غادر هذا الرحالة الدقيق الملاحظة مصر إلى بلاد العرب نزل بثغر « جدة » ورأى فنادقها المبنية بالحجارة والطين ، ولعلها لم تكن أسعد حالا من فنادق مصر ، فقد بلغ الأمر بكثير منها أن بضعة من النزلاء يبيتون فى الغرفة الواحدة ، وكانت مرابط الخيل ، ومواقف الحمير ، وأحواض الماء ومذاود العلف تقوم على كثب من هذه الفنادق يرتبط فيها النازلون خيلهم ، ويعلفون ويسقون دوابهم .

* * *

ولم تكن الفنادق تعرف وحدها بتميزها فى الشكل والمدخل ، بل كانت السجون من الأبنية التى تمتاز بطابع خاص فى



منظر داخلي لحمام عربي

المجتمع العربى على اختلاف الدهور . ولقد كان قيامها ضرورة جماعية منذ الأيام الأولى للفتوح العربية ، فى سنة ٢٣١ هـ نرى أن بغداد كان بها عدد من السجون امتلأت بقوم من النهابين الذين عدوا على بيت المال فأخذوا منه شيئاً من الذهب والفضة ، فأمر الخليفة الواثق بأخذهم وإيداعهم السجون ، وجاء المعتضد بعد ذلك فخصص للسجون جزءاً من مال الدولة لنفقات السجون وأقوات المسجونين ؛ ونرى السجون فى مصر ترجع إلى أزمان متقدمة منذ الفتح العربى ، وفى أخبار مصر للقرن الرابع الهجرى نرى أن سيبويه المصرى يمضى به إلى « الصناعة » ويحبس فى « بيت الزفت » ثم ينقل من بيت الزفت إلى سرير نصب له على شاطئ النيل . ولعل بيت الزفت هذا كان مكان السجن فى مصر الإخشيدية . وفى خطط المقريزى أن السجن الذى هو حشد جماعة من المذنبين فى مكان واحد لا يجوز عند أحد من المسلمين ، وذلك أنه يجمع الجمع الكثير فى موضع يضيق عنهم ، غير متمكنين من الوضوء والصلاة ، وقد يرى بعضهم ما لا يحل أن يرى من بعض.

ولكن هذه السجون الجماعية قد انتشرت فى كل بلد عربى ، واشتهرت بجماعة من الحراس والسجان القساة القلوب الغلاظ الأكباد . ويظهر أن تكليف المسجونين بالأعمال والصناعات

كان شيئاً قديماً ؛ وتختلف هذه الأعمال سهولة وصعوبة باختلاف الحالات والأزمان . فمما ينسب إلى الشاعر ابن المعتز قوله :

تعلمت فى السجن نسج التكك   وكنت امرأ قبل حبسى ملك

ولكن تلك أهون الحرف فى ظلام السجن ووحدته ، بالقياس إلى ما ذكره « المقريزى » من أن المسجونين كانوا يستعملون فى الحفر وفى العمائر ونحو ذلك من الأعمال الشاقة ؛ والأعوان ـ أى الحراس ـ تستحثهم ، فإذا انقضى عملهم ردوا إلى السجن فى حديدهم من غير أن يطعموا شيئاً . . . ولكن يظهر أن الحرمان من الطعام لم يكن فى أغلب الأحوال ، فإن الأصل أن تجرى عليهم الأرزاق حتى لا يهلكوا جوعاً .

ولعل من المناسب هنا أن نذكر أن أول دار اتخذت فى الإسلام سجناً هى دار صفوان بن أمية ، التى ابتاعها الخليفة المجتهد فى الدين ـ عمر بن الخطاب ـ من صفوان بن أمية بمكة بأربعة آلاف درهم ، وجعلها سجناً يحبس فيه . وقد تكلم فقهاء المسلمين فى هذه السجون العامة ، التى لم يثبت لها وجود فى عهد النبى عليه السلام وصاحبه أبى بكر ؛ ولكن يشاء الله أن تفتح هذه السجون أبوابها للعلماء والفقهاء الصريحين فى قولة الحق ، والذين لا تأخذهم فى الله ولا فى العقيدة لومة لائم . . فنرى فى القرن الثالث الهجرى الإمام أحمد بن حنبل يؤخذ فى

فتنة خلق القرآن فيضرب ويسجن ، ثم نرى أحد أتباعه وأنصاره الأجلاء يوضع فى السجن ويثقل بالحديد ، كما ننقله هنا عن المؤرخ ابن كثير .

* * *

وإذا كانت الحكمة تقول : « افتح مدرسة تغلق سجناً » فما أحرانا أن ننتقل انتقالة سريعة من ذلك العالم المملوء بالغيابات والسدود والقيود إلى عالم المدرسة العربية ، لنطوف طوفة عجلة بأمكنتها ونظم التعليم فيها ، وما اشترطوه فى المعلمين حتى يكونوا أهلا للقيام بمهنتهم . وما بنا حاجة إلى أن نطيل الوقوف عند نشوء المكاتب والمدارس فى الإسلام ، فذلك قد يسوقنا إلى مبحث طويل فى تاريخ التربية والتعليم عند العرب ، ولكن إنشاء دور خاصة للتعليم ، وتخصيصها للطلبة ، ووقف الأموال عليها ، لم يعلم إلا فى عهد السلجوقيين ، حين بنى نظام الملك الطوسى وزير ملك شاه السلجوقى المدرسة النظامية ببغداد فى القرن الخامس الهجرى ؛ وإذا عددنا نيسابور بقعة من المملكة الإسلامية — ولو لم تكن عربية الصبغة — فإنها عرفت نظام المدارس المبنية فى الإسلام قبل عهد المدرسة النظامية .

أما التعليم ذاته قبل إنشاء المدارس فقد كان يقوم فى المساجد وكان العلماء والفقهاء يجمعون التلاميذ حولهم على شكل حلقة ،

وكان من الطبيعى أن يتسع المسجد لأكثر من حلقة واحدة . ولما كانت المساجد هى المدارس الأولى فى العالم العربى ؛ وكان التلاميذ يحفظون فيها القرآن ويعلمون الخط فقد منع الفقهاء الصبيان من دخول المساجد وتعليمهم الخط فيها ، لأن النبى عليه السلام أمر بتنزيه المساجد منهم ومن المجانين ، خشية أن يسودوا حيطانها ، وينجسوا أرضها لعدم تحرزهم . ورأى الفقهاء أن تتخذ حوانيت للتعليم فى الدروب وأطراف الأسواق. ولقد كان مؤدبو الصبيان لا يتحرجون من استخدامهم فى قضاء حاجاتهم وأشغالهم ، وتسخيرهم حتى فى أخس الأعمال التى لا تتفق مع تنشئة بيوتهم ، كنقل الزبل ، وحمل الحجارة ، ولهذا جعل « الشيزرى » الحسبة على المؤدبين والمعلمين حتى لا يسيئوا استعمال مهنتهم . .

ويصف لنا الرحالة ابن جبير حلقات الدروس فى الحرم المكى ، وقد رفعت فيه مصاطب يجلس عليها النساخون والمقرئون والحرم محدق بحلقات المدرسين وأهل العلم ؛ أما دمشق فى عهد هذا الرحالة فقد كان فيها — على ما يذكر فى رحلته — نحو عشرين مدرسة ، كما كان فى بغداد فى ذلك العصر ثلاثون من هذه المدارس . وكان نظام « الجراية » فى المعاهد قائماً فى دمشق ؛ وكان أصحاب الجدة والغنى من الآباء ينزهون

أبناءهم عن أخذ هذه الجراية ، أما الباقون فيأخذونها ، وقد عد « ابن جبير » ذلك من المفاخر الإسلامية .

وقد كثرت المدارس فى مصر على عهد الأيوبيين ، وجاء المماليك بعدهم فزادوا عددها حتى قارب المائة قبيل الفتح العثمانى .

ولا يزال « للكتّاب » أو « المكتب » كثير من الارتسامات اللطاف فى ذاكرة كثير منا ممن تعلموا فيها أو أدركوا أيامها ، أما البراعم المتفتحة من أبنائنا فقد أراحهم الله من كثير من ألوان العذاب التى كانت تموج بها هذه الكتاتيب . . .

* * *

وإذا انتقلنا من الصحة العقلية إلى الصحة الجسمية فى المجتمع العربى رأينا عند العرب نزوعاً منذ جاهليتهم إلى التداوى والتطبيب حتى ولو كان ذلك على يد العرافين . . . ولقد كان للدولة الأموية فضل إنشاء أول « مارستان » أو دار للشفاء والتمريض فى الإسلام ، وكانت دمشق أول مدينة عربية ظفرت بهذا الحظ الكبير . وفى الحق أن مارستان الخليفة الوليد بن عبد الملك بدمشق كان معزلا للمجذومين أكثر منه داراً للعلاج ؛ وعلى كل حال فقد كانت هذه هى الخطوة الأولى التى سار عليها العباسيون ؛ فقد رأينا ببغداد فى القرن الثانى من الهجرة يقوم فيها

« مارستان » فينجح ويتولاه كبار الأطباء من النصارى أولا ؛ ثم رأينا مصر فى العصر الطولونى يقوم فيها أكبر مارستان على يد « أحمد بن طولون » ، ثم يدار بحكمة وتنظم المعالجة فيه ، ويعين له أمين للقيام على ثياب المرضى وحاجاتهم حتى يبرءوا فترد إليهم أماناتهم .

ويصف لنا ابن جبير مارستان القاهرة فى العصر الأيوبى ، فنري من الوصف أن فن المستشفيات والتمريض كان على حال متقدمة فى تلك الأزمان ، فهو يحتل قصراً من القصور الرائقة حسناً واتساعاً ، وقد بناه السلطان احتساباً ، وعين له قيما من أهل المعرفة بالطب ، ووضع لديه خزائن العقاقير ، ومكنه من استعمال الأشربة وإقامتها على اختلاف أنواعها ، وكانت أسرة المرضى الموضوعة فى مقاصر القصر مضاجع كاملة الكسى ؛ وبين يدى ذلك القيم خدمة « ممرضون » يتفقدون أحوال المرضى بكرة وعشياً ، فيقابلون من الأغذية والأشربة ما يليق بهم .

وبلغ من التخصيص فى فن المستشفيات أنه أقيم بجوار ذلك المارستان موضع مقتطع منه خاص بالنساء المريضات ، ولهن من يكفلهن . كما اتخذ بالقرب منه موضع آخر متسع الفناء لمقاصيره شبابيك من الحديد ليكون داراً للمصابين فى عقولهم . وكان السلطان نفسه يلاحظ هذه الدور ملاحظة دقيقة ،

ويؤكد فى الاعتناء بها والمثابرة عليها غاية التأكيد .

ويروى لنا الرحالة الطبيب الأندلسى أبو الصلت الذى زار مصر فى العصر الفاطمى حكاية رجل كان يعالج المرضى فى المارستان الفاطمى بغير عقار ولا دواء . . . بل كان يدخل على المريض فيحكى له حكايات مضحكة ، وخرافات مسلية ويخرج له وجوهاً مضحكة ، وكان فيه قدرة على إضحاك المريض وله فى ذلك مسالك لطيفة ، فإذا انشرح صدر المريض وعادت إليه قوته تركه ليمضى فى طريق البرء . وكان أبو الصلت نفسه — وهو طبيب — يذهب مذهب ذلك الرجل فى التطبيب ويرى علاجه لا مضرة فيه ولا غائلة له ، بل أمره على العليل هين ، ونفعه ظاهر بين — كما يقول فى « رسالته المصرية » .

أفراح وأتراح

الأعياد والمواسم – حفـلات الزواج – حفلات الختان –
حفلات الشفاء – حفلات المحمل – الموالد – الجنائز . . . الخ

لم يخل المجتمع العربى من ساعات السرور وأوقات الفرح التى لا تطاق بدونها حياة ، ولا يحتمل مع عدمها عيش . والتى احتال الناس فخلقوها خلقاً ليفيدوا طباعهم المكدودة راحة ، ونفوسهم المحزونة مسرة . بل ساعدت الأديان على إيجاد هذه المناسبات الفرحة السعيدة ليخلص الناس فيها بعض الوقت إلى جو من الفرحة لا يألفونه على مدار العام كله . ومن هنا كانت أعياد المسلمين وغير المسلمين فى أقطار العربية ، وهى تلك الأعياد والمواسم التى اتخذت فى كل أرض لوناً خاصاً بها ، وطبعت بطابع يميزها من غيرها . ولقد كان المسلمون فى أنحاء كثيرة من المملكة العربية لا يكتفون بأعيادهم وحدهم ، وإنما شاركوا غيرهم من أهل النحل الأخرى فى النواحى المرحة المسلية من أعيادهم . وكثيراً ما روى لنا المؤرخون والرحالون أوصاف ما شاهدوه من تعييد المسلمين فى أعياد إخوانهم غير

المسلمين ، فينتهزون ذلك الجانب البهيج من تلك الأعياد ، ويخرجون إلى المنازه والمقاصف والأديرة ويضربون السرادقات فى الخلاء ، ويستمعون إلى عزف القيان ، ويبيحون من وسائل اللهو والترفيه فى تلك الأيام ما لا يباح فى غيرها ؛ ويروى « المقدسى » عن عيد للنصارى بالعراق أنه من الأعياد التى يتعارفها المسلمون ويحسبون بها الأزمنة والفصول ؛ وقد شهد هو ذلك العيد فى بغداد فى خلال رحلته إليها .

وكان لعيد الغطاس فى مصر فرحة خاصة فى المجتمع كله — قبطيه ومسلمه — وكان أهل مصر يجدون فيه من الفرح ما لا يكون لغيره من أيام السنة . وقد شهد المؤرخ المسعودى هذا العيد فى مصر فى عهد الإخشيد سنة ٣٣٠ هـ « وقد أمر فأسرج من جانب الجزيرة وجانب الفسطاط ألف مشعل ، غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشمع ، وقد حضر النيل فى تلك الليلة مئو آلاف من الناس المسلمين والنصارى ، منهم فى الزوارق ، ومنهم فى الدور الدانية من النيل ، ومنهم على الشطوط لا يتناكرون الحضور ، ويحضرون كل ما يمكنهم إحضاره من المآكل والمشارب والملابس وآلات الذهب والفضة والجواهر والملاهى والعزف والقصف ، وهى أحسن ليلة تكون بمصر ، وأشملها سروراً ، ولا تغلق فيها الدروب ، ويغطس

أكثرهم فى النيل ، ويزعمون أن ذلك أمان من المرض ومبرئ للداء » .

ولقد أضفى الفاطميون بمصر على الأعياد الإسلامية كثيراً من ألوان الفخامة والأبهة والمظاهر والمراسم ، وخاصة عيدى الفطر والأضحى وأول رمضان — أو عيد الرؤية — والجمع الثلاث من رمضان ، وأول العام الهجرى . وقد ترك لنا المؤرخون كثيراً من أوصاف هذه الاحتفالات . وكان الخليفة الفاطمى يخرج لصلاة العيد فى موكب حاشد ، وتزين المساجد ويفرش المسجد الذى يصلى فيه الخليفة بالطراحات فى المحاريب ، وتعلق الأستار ، وتركز الألوية ، ويخرج الخليفة راكباً ومعه المظلة والتاج وغير ذلك من الآلات ، ويلبس الثياب البيض الموشحة فهى أجل لباسه فى ذلك اليوم ، ويخرج الأمراء والأجناد والركبان والمشاة ، وينتظم القوم صفين على طول الطريق من باب القصر إلى المصلى . . . وكانت رسوم الصلاة والدعاء والخطبة والصعود على المنبر والهبوط منه مما يحرص أبلغ الحرص على تنفيذه .

وجاء المماليك فأبقوا الاحتفال بعيدى الفطر والأضحى فى مصر ولكنهم غيروا من الرسوم بقدر مايلائم أحوالهم وظروفهم وتقاليدهم ، فقد كان السلطان المملوكى يخرج للصلاة يوم

العيد بمسجده الذى أنشأه أو بغيره من المساجد ، ثم يعود إلى قصره ليصعد إليه الوافدون عليه بالتهنئة . وكان يخلع فى هذا اليوم الخلع السنية ويقدم الجوائز الثمينة إلى الأمراء وكبار الوافدين عليه . وكان موكب الوزير للصلاة فى العيد رسماً متعالماً ؛ فيركب بغلته ، وعلى رأسه الطرحة البيضاء ، وتحت عمامته طاسة مذهبة ، وحول عنقه سبحة كبيرة الحبات من العنبر ، وتسير أمامه الأوجاقية لابسين الترّيات ، وهى ثياب من الحرير الأصفر ، وبين يديه ينطلق البخور من مبخرة كبيرة تسمى مبخرة السلطان .

وكان الناس يفرحون فى هذين العيدين ، فيلبسون أحسن ثيابهم ويتطيبون اقتداء بالرسول عليه السلام ، ويتزاورون بعد الصلاة وزيارة القبور . وكان لعيد الفطر تكاليفه الكثيرة من الكعك ، والخشكنان ، والبسندود ، والسمك المجفف ، والنقل التى تجد فى هذا العيد أعز مواسمها ، وتلقى أكثر الطلب عليها .

وقد بعد الناس مع الزمن عن فكرة الأعياد الدينية ووجوب مراعاة الفقير فيها ، ومقاسمته السرور فيها ؛ فأصبحت تقليداً ومظاهر ، للتباهى والتكاثر ، حتى أضحت مطالبها وتكاليفها إرهاقاً وتكليفاً بما لا يطاق ، وأصبح كثير من الناس يعملون

لها حسابها ويحرصون على أن لا يحرموا أسرهم منها . وإذا كان بعض غير الواجدين يحتفظون بآلام الحرمان فى الأعياد ومرارته فى نفوسهم فإننا نجد شاعراً مصرياً مشهوراً هو الإمام محمد ابن سعيد البوصيرى صاحب البردة المعروفة يشكو إلى وزير من وزراء مصر فى العصر المملوكى من حلول عيد الفطر وما عنده ولا عند أولاده قمح ولا خبز ولا فطرة ، فيقول :

يا أيها المولى الوزير الذى أيامه طائعة أمره
ومن له منزلة فى العـــلا تكل عن أوصافها الفكره
إليك نشكو حالنا إننا حاشاك من قوم أولى عسره
فى قلة نحن ولكن لنا عائلة فى غاية الـــكثره
أحدث المولى الحديث الذى جرى لهم بالخيط والإبره
صاموا مع الناس ولكنهم كانوا لمن أبصرهم عبره
إن شربوا فالبئر زير لهم ما برحت ، والشربة ابلجره
لهم من الخبيز مصلوقة فى كل يوم تشبه النشره
أقول مهما اجتمعوا حولها تنزهوا فى الماء والخضره
وأقبل العيد وما عندهم قمح ولا خبز ولا فطره
فارحمهمو إن عاينوا كعكة فى كف طفل أو رأوا تمره
تشخص أبصارهمو نحوها بشهقة تتبعها زفره . . !!

* * *

وكان لشهر رمضان من البهجة دائماً عند المسلمين خلال العصور ما لا يجمل بنــا إغفاله هنا ، وإن كان انقلب الاحتفال به إلى كثير من المظاهر التى غالت المجتمعات العربية المتأخرة فيها ، وخاصة فى مصر الفاطمية التى استحلت من الأمور فى شهر الصيام ما لا عهد للمسلمين الأولين به ، فكان الخليفة الفاطمى يرسل فى أول يوم من رمضان إلى كل واحد من الأمراء وأرباب الرتب والخدم طبقاً ، ولكل واحد من أولاده ونسائه طبقاً فيه حلواء ، وفى وسطه صرة من ذهب ، فيعم ذلك سائر أهل الدولة ، وكانت المساجد تعد فى أخريات شهر شعبان إعداداً خاصاً لاستقبال شهر الصوم ، فتجدد الحصر ، وتصلح القناديل ، وتصلح عمارتها ، ويزال شعثها . فإذا ما دخل رمضان مدت الأسمطة التى وصفها صاحب « الخطط » وصفاً دقيقاً ؛ وكان الخليفة يجلس إلى وقت السحور والمقرئون تحت الروشن يتلون عشراً من القرآن ويطربون بحيث يشاهدهم الخليفة ، ثم يأخذ المؤذنون فى التكبير وذكر فضائل السحور ، ويقوم المتصوفة بالرقص الصوفى أو رقص الدراويش إلى أن ينقضى من الليل أكثر من نصفه ، ثم يأخذ الفراشون وعلى رأسهم أستاذهم فى تقديم جفان القطائف وجرار الجلاب والسحورات المطيبات من اللبن الرطب والمخض وأنواع العصارات

والسويق الناعم والحريش ، وكل ذلك فى صحون من الصينى على صينيات من الذهب . . .

هذا ما كان فى مصر . . . أما فى مكة المكرمة فقد شهد ابن جبير الحفاوة برمضان فى القرن السادس ، وفيه وقع الاحتفال فى المسجد الحرام للشهر المبارك ، وجددت الحصر ، وكثرت الشموع والمشاعيل ، حتى تلألأ الحرم نوراً وسطع ضياء ، وقد نصبت أمام المحراب شمعتان كبيرتان موقدتان زنتهما قنطار . وحف بهما شمعات — دونهما — صغار وكبار . وكان كل قارئ يصلى بجماعة خلفه ، فيرتج المسجد لأصوات القراء من كل ناحية .

ولقد بقيت عندنا من عادات رمضان عند الفاطميين والمماليك أمور كثيرة . . حتى هذه القناديل أو المصابيح التى كانت تضاء ولا تزال تقد طول الليل حتى يؤذن المؤذن لصلاة الفجر فتطفأ القناديل . وكان مؤذن السحور — أو المسحراتى — يتولى ذلك العمل من المسجد ؛ ولكن فى عصور متأخرة رأيناه يجوس خلال الدروب والحوارى والأزقة بقنديله أو فانوسه الضئيل وبطبلته التى تذكرنا بالطبول والدبادب التى كانت تضرب فى أول رمضان إيذاناً بالصيام .

* * *

ومما يتصل بالمواسم الدينية فى المجتمع العربى تلك الموالد التى يقيمها المسلمون وغير المسلمين احتفالا بميلاد رجال ينزلون من نفوس قومهم منازل التبجيل والتكريم ، فنرى مولد النبى عليه السلام عند المسلمين ، ونرى مولد المسيح عليه السلام عند النصارى — فى البلاد الإسلامية — الذين كانوا يحتفلون بهذا العيد بإيقاد النيران لعلة ذكرها أحدعلماء الشيعة فى القرن الرابع. ونرى أقباط مصر يحتفلون بعيد ميلاد المسيح فى التاسع والعشرين من شهر كيهك القبطى — كما يقول المقريزى — « وما برح لأهل مصر به اعتناء ، وكان من رسوم الدولة الفاطمية فيه تفرقة الجامات المملوءة من الحلاوات القاهرية والمتارد التى فيها السمك ، وقرابات الجلاب ، وطيافير الزلابية والبورى » وهكذا كان مولد المسيح عليه السلام فى مصر الإسلامية فرصة لاحتفال الأقباط والمسلمين به على السواء . .

أما مولد النبى محمد عليه السلام الذى احتفى به الفاطميون على طريقة لم يعهدها السلف ، فقد كان مشهداً لا يفوتنا ذكره هنا ، وكان من عادة الفواطم فيه أن يعمل فى دار الفطرة عشرون قنطاراً من السكر الفائق حلوى من طرائف الأصناف ، وتعبى فى ثلاثمائة صينية نحاس ، وتفرق ليلة المولد النبوى على أرباب الرسوم ، ويظهر أن أصحاب المراتب كانوا دائماً

يظفرون بالحظ الأوفر من هذه الحفلات ، أما أفراد الشعب فلم يكن لهم إلا التفرج على هذه المواكب من بعيد ، وقد يمنعون من المرور حتى تتم مراسم الاحتفال . ولا تزال أصناف الحلوى التي تعمل في مولد النبي في عصرنا هذا أثراً من آثار الفاطميين في مصر .

وكان للأولياء موالد تقام لهم ويحتفل بها الشعب احتفالات يجد فيها متنفساً لنفسه . فنجد مولد « الشيخ إسماعيل الأنبابي » يقام بأرض الجزيرة تجاه بولاق في عهد السلطان الغوري ، ونجد كثرة من الخيام تضرب في الأرض الفضاء هناك حتى يبلغ عددها خمسمائة خيمة ، ونرى المؤرخ ابن إياس يصف لنا في حوادث سنة ٩١٣ هـ كيف نصبت الأسواق على هيئة دكاكين في مولد ذلك الولي ، وكيف خرج الناس في الفرجة عن الحد ، وأقاموا هناك ليالي متوالية نائمين في الخيام بعيداً عن بيوتهم في القاهرة ، وكان أصحاب اليسار يقدمون الأطعمة وينصبون الموائد في تلك الموالد التي كانت تقوم كأسواق رائجة للبيع والشراء . ولم تسلم هذه الموالد من وقوع الحوادث التي قد تكدر صفوها ، كحادث الحريق الهائل الذي وقع في مولد الشيخ سويدان المجذوب في مدرسة ابن الزمن ببولاق في أخريات العصر المملوكي وقبيل العصر العثماني . . . فقد كانت امرأة

تطبخ على شاطئ النيل فطارت منها شرارة فتعلقت بمركب يحمل كتاناً ، وكانت الريح ليلة المولد عاصفة فامتدت إلى معصرة هناك وسرت فى نواحيها . . حتى احترقت ونهب ما بها من قصب وسكر وعسل . . .

ومن أطرف المواسم فى المجتمع العربى موسم الحج والتهيؤ للمحمل ، وهو ذلك الجمل الذى يكسى كسوة خاصة ويركب تركيبات ثمينة ليحمل كسوة الكعبة الشريفة كل عام ، وقد كان له مواكب خاصة فى كل من العراق والشام والمغرب ومصر ، ولهذا يذكر « السيوطى » أن عدة المحامل السلطانية أربعة ، ولم يبق الآن إلا المحمل المصرى الذى نشهده كل عام تحت سمعنا وبصرنا فلا حاجة بنا إلى وصفه . ومهما يكن من أمر بداية خروج محمل إلى الأراضى المقدسة فى العالم الإسلامى فإن السلطان الظاهر بيبرس المملوكى المصرى هو أول من أمر بطواف المحمل والكسوة بالقاهرة وكان ذلك فى شوال سنة ٦٧٥هـ وكان يوم خروجه يوماً مشهوداً فى الديار المصرية . وكانت القاهرة تأخذ زينتها للاحتفال بخروج المحمل ، وتبالغ فى الحفاوة به مبالغة عظيمة ؛ وكثيراً ما تحمل الناس ضروباً من مكابدة النفقات لتزيين محالهم وبيوتهم وتجميلها بالأطلية والأدهنة والأقمشة الملونة والحرير المطرز ، وتعليق القناديل وإضاءة

الشموع ليلا ونهاراً ؛ وتنصب الأسواق في كل مكان وتنثر الكراسي والمقاعد ، ويخرج الناس على اختلاف ألوانهم فيختلفون إلى أماكن اللهو والتسلية ويسمعون وهم متحلقون إلى أناشيد الشعراء والقصاصين ، ولقد يستخف الطرب والنشوة كثيراً من أفراد المجتمع القاهرى بمن وفد عليه من الأقاليم فيرقصون ويسمرون ويغنون ، وتموج شوارع القاهرة بالناس رائحين غادين .

وقد شهد « ابن بطوطة » الرحالة المشهور يوم المحمل بمصر فى أول عهده بالرحلة فى القرن الثامن الهجرى ، فذكر كيف يركب القضاة الأربعة ووكيل بيت المال ، والمحتسب ، وأعلام الفقهاء وأمناء الرؤساء وأرباب الدولة ، ويقصدون جميعاً باب القلعة — دار الملك الناصر — فيخرج إليهم المحمل على جمل ، وأمامه الأمير المعين لسفر الحجاز فى تلك السنة ، ومعه عسكره ، والسقاءون على جمالهم ، ويجتمع لذلك أصناف الناس من رجال ونساء ، ثم يطوفون بالمحمل ، بمدينتى القاهرة ومصر — يعنى الفسطاط أو مصر العتيقة — والحداة يحدون أمامهم ، ويكون ذلك فى شهر رجب — إيذاناً بقرب الحج — فعند ذلك تهيج العزمات ، وتنبعث الأشواق ، وتتحرك البواعث .

وتلك صفة العرض الرجبى للمحمل الذى ظل قائماً

بمصر زمناً طويلا ؛ أما العرض الثانى ، وهو عرض خروج المحمل فيكون عادة فى شهر شوال – أى قبل الحج بشهرين – تقديراً للرحلة الطويلة فى تلك الأزمان .

* * *

وقد كان من مناسبات الأفراح فى المجتمع العربى تلك الحفلات التى كانت تقام للزواج فيجتمع فيها الناس ويسمرون ويلهون ويقصفون . وكانت تختلف باختلاف العصور من ناحية ، وعلى قدر أصحاب العرس من ناحية أخرى . والاحتفال بعقود النكاح قديم فى المجتمع العربى ، حتى ليرجع إلى ما قبل ظهور الإسلام ؛ ولقد شهد النبى عليه السلام قبل مبعثه – وكان غلاماً – حفلتين من حفلات الزواج فى المجتمع العربى الجاهلى ، ولا بأس أن نصفهما هنا تمهيداً للوصول إلى تطور الاحتفال بالزواج فى العصور التالية . روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما هممت بشىء مما كان أهل الجاهلية يفعلونه غير مرتين ، كل ذلك يحول الله عز وجل بينى وبين ما أريده من ذلك ، ثم ما هممت بعدها بشىء حتى أكرمنى الله برسالته ، فإنى قلت لغلام من قريش ليلة وكان يرعى معى فى أعلى مكة : لو أنك أبصرت غنمى حتى أدخل مكة

فأسمر بها كما يسمر الشباب ؟ قال : افعل ! فخرجت أريد ذلك حتى جئت أول دار من ديار مكة سمعت عزفا بالدفوف والمزامير ، فقلت : ما هذا ؟ فقالوا : فلان تزوج فلانة بنت فلان ، فجلست أنظر إليهم ، فضرب الله عز وجل على أذنى ، فنمت فما أيقظنى إلا مس الشمس ، فرجعت إلى صاحبي ، فقال : ماذا فعلت ؟ قلت : ما صنعت شيئاً ثم خبرته الخبر » . ويمضى الحديث فيصف النبي فى الحفلة الثانية مثل ما وصف فى الأولى .

وتصف لنا كتب التاريخ ما كان يجرى فى حفلات زواج الخلفاء والأمراء مما يعد أشبه بحكايات ألف ليلة وليلة . . . وقد تأنق العباسيون فى ذلك وبالغوا فيه ، حتى كان زفاف « بوران » بنت الحسن بن سهل إلى الخليفة المأمون مما لم يعهده المسلمون من قبل ، حتى لقد نثر والد العروس فى ذلك من الأموال ما لم ينثره وما لم يفعله ملك قط فى جاهلية ولا فى إسلام — كما يقول المؤرخ المسعودى — فقد نثر على الهاشميين والقواد والكتاب بنادق مسك فيها رقاع بأسماء ضياع ، وأسماء جوار ، وصفات دواب وغير ذلك . . . فكانت البندقة إذا وقعت فى يد رجل فتحها فقرأ ما فيها ، فيجد على قدر حظه وإقبال سعوده . كما نثر على سائر الناس

الدنانير من الذهب والدراهم من الفضة ، ونوافج المسك ، وبيض العنبر .

وكان المغنون والمطربون والراقصات يفرحون بهذه الأفراح ويعدونها من أسعد حظوظهم لما كان يعطى فيها من « النقطة » أو « النقوط » الذي كان بالدنانير والدراهم ، كل على قدره ؛ وكان هذا النقوط يسمى « الفرض » فى العصور الأولى كما جاء فى كتاب الأغانى ، أما المتأخرون فيسمونه « النقوط » وقد استعمله الشعراء فى مفاكهاتهم ، كقول ابن الوكيل المصرى :

أتاه النسيم الرطب رقص دوحه
فنقط وجه الماء بالذهب المصرى

والتورية هنا لطيفة ظاهرة . على أن العروس نفسها كانت « تنقط » كما يدل عليه قول الشاعر :

هذى عروس الزهر نقطها الندى
بالدر ، فابتسمت ونادت « معبدا »

وكانت المغالاة فى المهور وجهاز العروس مما لم يفت المؤرخين أن يذكروه فى حوادث السنين ويضربوا به الأمثال . فصاحب « السلوك » يذكر أنه عقد للأمير أبى بكر بن الأمير أرغون النائب على « خوند » بنت السلطان على أربعة آلاف

دينار ؛ وعمل لهم « مهما » — أى حفل زواج — عظيما مدة أربعة أيام ، ورمى الأمراء الذهب فى الطشت . . . إلا أن ذلك المهر ليس شيئاً بجانب ما دفعه الأمير آنوك على زوجته بنت بكتمر الساقى سنة ٧٣٢ هـ بمصر ، فقد بلغ الصداق اثنى عشر ألف دينار .

أما المغالاة فى الجهاز فيكفى فيه ما ذكره المؤرخون فى جهاز « قطر الندى » بنت خمارويه حين زفت إلى الخليفة المعتضد العباسى ، فقد حملت العروس المصرية من مصر إلى بغداد مع عبدالله بن الجصاص، وحمل معها ما لم ير مثله ولم يسمع به كما يقول صاحب « السلوك » و « الخطط » . وكان من جملة جهازها — كما يذكر صاحب « النجوم الزاهرة » — دكة أربع قطع من ذهب عليها قبة من ذهب مشبّك ، فى كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة من جوهر لا يعرف لها قيمة . . . ومائة هاون « هون » من الذهب . . . بل قال « الذهبى المؤرخ » إنها ألف هاون . . . وألف تكة للسراويل ثمنها عشرة آلاف دينار . . . أى أن ثمن التكة الواحدة عشرة دنانير .

ولم تكن أجهزة العرائس فى مصر الطولونية وحدها هى التى تبلغ هذا المبلغ من المغالاة ، ففى مصر المملوكية وفى

سنة ٧٢٣ هـ كان جهاز ابنة السلطان التى تزوجها ابن الأمير أرغون يحتوى على كلة واحدة للسرير « باشخاناه » وستارة ، وداير بيت زركش بمبلغ ثمانين ألف دينار . . . وآلات ذهب وفضة بما ينيف على عشرة آلاف دينار . وقد سرت عدوى الكبار إلى الصغار فأرهق عامة الناس أنفسهم بمطالب الزفاف والمهور وجهاز العروس إلى حد لا يتفق ومواردهم ، فكانوا دائماً من الديون على هم مقعد مقيم . . .

ولعل من الطريف أن ننقل هنا وصفا لموكب زواج مملوكى زفت فيه إلى الملك العادل طومان باى زوجته سنة ٩٠٦ هـ ، أى قبيل الفتح العثمانى ببضعة عشر عاماً . . . فقد خرجت العروس — كما يقول ابن إياس المؤرخ — من بيتها بقنطرة سنقر فى محفة زركشية ، وأمامها رءوس النوب والحجاب والخاصكية ، وهم بالشاش والقماش ، وأمامها كذلك الوالى ونقيب الجيش والزمام عبد اللطيف ، وأعيان الأكابر والمباشرين والطواشية . . . وفى صحبتها نحو مائتين من أعيان نساء الأمراء والعظماء ؛ فلما وصلت إلى باب الستارة فرشت لهـا الشقق الحريرية تحت حوافر بغال المحفة ، ونثر عليها خفائف الذهب والفضة ، وحمل الزمام فوق رأسها القبة والطير ، حتى جلست بقاعة العواميد ، والموسيقى تصدح فى خلال ذلك . . .

واستمر الابتهاج بقدومها فى القلعة ثلاثة أيام ، ووضع أمامها فى موكبها كذلك جملة من الصرر وطست وإبريق ومنديل من الزركش .

* * *

ولم يكن الزواج وحده مبعث أفراح فى المجتمع الإسلامى العربى وفرصة احتفال ، فقد رأينا على ممر العصور العربية ألواناً من الخلق — أغنياء وفقراء — يحتفلون بختان أولادهم أو «طهارتهم» أو «تطهيرهم» . وكان يقام للذلك من مراسم الأفراح ما يختلف تبعاً لطبقة الناس . وإذا كان العصر العباسى قد شهد ختان عشرات من أولاد الخلفاء والأمراء ، وشهد ما نثر فيها وما فرق من الذهب والفضة والكسوة ، وشهد الموائد والأطعمة الشهية وحلقات اللهو ، فإن المجتمع المصرى قد بالغ فى مراسم هذه الاحتفالات وخاصة فى العصور المملوكية والتركية . . . فنى سنة ٨٨٦ هـ كان ختان أولاد ابن مزهر ، وكان منزله ببركة الرطلى ، فأم منزله فى ليلة الختان كثير من الأمراء المقدمين والعشرات ، وأوقد الناس منازلهم وحلوها بالقناديل ، حتى انقلب الليل نهاراً لشدة الضوء ، وكانت الزينات المنتشرة هنا وهناك تجذب إليها الناس زمراً زمراً فيفدون للتفرج عليها والائتناس والمشاركة فى الفرح واللهو ، وكانت المراكب المملوءة

بألوان من الخلق تروح وتغدو على سطح مياه بركة الرطلى ، وهم يسمرون ويلهون ؛ وانبعث المغنون والمغنيات فى أرجاء المكان الفسيح حول البركة يطربون الحضور بأعذب الأنغام ، وعلى رأسهم إمام الغناء فى القاهرة فى عصره : « ابن رباح » . وراجت الحلوى فى القاهرة بسبب التهادى والبيع حتى ربح البائعون أرباحاً طائلة . وبعث ابن مزهر القاضى – صاحب الحفل ووالد المختونين – إلى كل بيت فى بركة الرطلى عشرة أرطال من الزيت ، ومائدة فيها مالذ وطاب من الطعام . . .

ولم يألف المجتمع العربى مثل هذه المباهج إلا فى ختان الذكور من الأولاد ، أما ختان الإناث فكان يجرى على صمت وسكون دائماً ، لولا ما حدث فى مدينة « حمص » الشامية سنة ٥٠٣ هـ ، فقد طهر القاضى السديد أبو الحسن بن هندى ابنة له ، فصنع لها موكباً . . . وعبرت الفتاة فى سوق حمص راكبة على فرس ، ومستقرة على مخدة فوق السرج . . . ومن خلفها راكب يمسكها ، وأمامها البوقات والطبول تضرب وتدبدب ، وغير ذلك مما يكون عادة بين يدى المطهرين من الصبيان . . . وقد ذكر راوى هذه الحادثة ذلك على سبيل النكتة والعبرة مما يحصل فى بعض الأماكن وعند بعض الناس من الحماقات والسخافات . . .

* * *

ولم يكن شفاء الملوك والسلاطين وإبلالهم من أمراضهم يمر في المجتمعات العربية من غير احتفال به وتهليل له . وكان الشعب يشترك في أمثال هذه المناسبات اشتراكاً يدل على مبلغ تعلق الرعية برعاتها ، ولم يفت المؤرخين أن يدونوا أخبار هذه الاحتفالات والزينات وخاصة في العصور المتأخرة ؛ فنجد في حوادث مصر سنة ٧٣٠ ﻫ وفي عهد السلطان الناصر قلاون أنه خرج إلى نواحي « قليوب » للصيد ، فوقع من فوق فرسه ، وانكسرت يده ، وأغمي عليه ساعة وهو ملقى على الأرض ، واستدعى له المجبرون والمتطببون ؛ فلما عوفي بعد أكثر من شهر زينت القاهرة ومصر زينة لم يعهد الناس مثلها ، لكثرة ما تفاخروا وغالوا فيها ؛ وظلت الزينات مقامة لمدة أسبوع كامل افتتن أهل البلدين فيه بأنواع الترف ، واجتمع أرباب الملاهي في عدة أماكن ومعهم آلات الغناء كاملة ، وقد ازينت القلعة ولبست أبهى أثوابها ؛ وظلت الكوسات بالبشائر تضرب ، والطبول تدق ، ولم يبق أمير إلا عمل في بيته فرحاً ، ولم يبق بيت إلا نصبت عليه معالم الزينة ، ومدت الأسمطة الجليلة ، ووزعت الأعطية على الأيتام ؛ ونزلت زوجة السلطان في عدة من الخدم والجواري لتشهد أفراح القاهرة ومصر بشفاء

زوجها . . . وكانت هذه الأيام – كما يقول صاحب السلوك – مما يندر وقوع مثله .

وفى عهد السلطان الغورى ، وبعد قرابة قرنين من الزمان من شفاء السلطان الناصر قلاون نرى القاهرة مرة أخرى تشهد مهرجانا رائعاً جليلا لشفاء الغورى من رمد بعينيه خيف عليه منه العمى . . . ففى شعبان سنة ٩١٩ هـ خرج محتسب القاهرة الأعظم ينادى فى الناس بإقامة الزينات ونصب معالم الأفراح فى بركة الرطلى حيث كانت تتخذ مجتمعاً للزينة فى ذلك الزمان . وهنا نرى القناديل والثريات معلقة على وجوه المحال وطاقات المنازل ، ونرى الأعلام الصفر والحمر وأقمشة الحرير ترفرف فى كل مكان ، ونرى المراكب والزوارق وقد ماجت بها البركة لتنقل المتفرجين من مكان إلى مكان ؛ ونسمع الموسيقى وهى تعزف ، والمغنيات وقد ترددت أصواتهن فى كل أفق ، نرى الألعاب النارية التى كانت تشعل بزيت النفط – بدلا من صواريخ زماننا هذا – ونرى الناس يتبادلون بحق آيات التهنئة والتبريك بشفاء هذا السلطان العظيم . ثم يتمادى الناس فى التعبير عن سرورهم وفرحهم ، فتظل القاهرة على هذا المنظر البهيج ثلاثة أسابيع . . .

* * *

وإذا كانت أعراس الحياة تقابلها المآتم ، كما قضت بذلك سنة الحياة ، فأولى بنا أن نجوس في خلال المجتمع العربى لنشاهده فى أحزانه ، كما شاهدناه قبل ذلك فى مظاهر سروره ومجامع حبوره . ولقد كانت الجنائز أول الأمر بسيطة لا تعقيد فيها ولا مظاهر ، إلا ما يكون من سير الرجال خلف الجنازة للعبرة وتذكر الموت فى جلاله ، وقد أفتى كثير من علماء المسلمين بأن الأولى أن لا يخرج النساء فى الجنائز ، والذين أباحوا خروجهن شرطوه بأن يمنعن من كشف الرءوس والوجوه خلف الميت . . . ولكننا سرعان ما وجدنا النساء في مصر الطولونية والإخشيدية يخرجن خلف الجنازة وقد شققن الجيوب ، ولطمن الخدود ، وصبغن الوجوه بالسواد ؛ ولعل تلك الصبغة هى بقية مما كان يحدث فى مصر الفرعونية وخاصة فى العصور المتأخرة ؛ ونرى بعد ذلك مصر الفاطمية وقد خرج فيها النساء فى الجنازات ومعهن النوائح بالطبل والضوارب بالدف وهن يصرخن ويعولن . . . وقد نهاهن الحاكم بأمر الله عن ذلك . وليس لدينا شك فى أن نساء العراق كن أكثر استمساكاً بأدب الإسلام فى الجنائز من نساء غير العراق من الأمصار . . .

ففى سنة ٢٤١ توفى الإمام أحمد بن حنبل ولم تشهد بغداد مثل جنازته ، بل لم يشهد ميت مثل غسله . . . فقد حضر غسله

نحو مائة من بيت الخلافة من بنى هاشم. وخرج خلفه من الرجال والنساء ما لم يعلم عدده إلا الله حتى قدره بعض المؤرخين بما زاد على ألف ألف وخمسمائة ألف – أى مليون ونصف. ولكن النساء التزمن الحدود فلم يبد منهن ما يخالف شرعاً أو يناقض سنة .

ولقد أخذت الجنائز فى مصر المملوكية شكلا مظهريا فيه من الرسوم والتقاليد ما لا نزال إلى اليوم نعانى الكثير من آثاره ؛ فكان أهل الميت يؤجرون من ينادي على أبواب المساجد أو يؤذن فوق المآذن بأن فلاناً قد مات . . . ويودع النسوة جثة الميت عند خروجها من منزله بصيحات حارة منكرة تنخلع لها من الأسى أقسى القلوب ، ثم يخرجن خلف الجنازة حاسرات الرءوس سافرات الوجوه حافيات الأقدام ، وتذبح الذبائح عند خروج الجنازة وعند المقابر وتوزع الصدقات من خبز ونحوه خلال سير الموكب ، وهى محمولة فى أوعية خاصة يسعى بها الساعون . . . ويتقدم محترفو القراءات موكب الجنازة وهم يرتلون كلمات وعبارات أو أبياتاً من « بردة » الإمام البوصيرى ، يلقونها جميعاً بصوت واحد وبنغمة واحدة معروفة . . . وتقام ليالى المآتم وتنصب السرادقات للعزاء ، حيث يقرأ القرآن إلى ساعات متأخرة من الليل ..

ويروى المؤرخ الجبرتى ما كان يحدث فى مصر أيام العثمانيين

من عمل الكعك المحشو بالسكر والعجمية ، وصنع « الشريك » وتفريقه على المدافن والترب فى أيام الجمع والمواسم صدقة على أرواح الأموات . ولا يزال ذلك كله باقياً إلى اليوم .

وأغرب ما صادفت من جنازات المجتمع الإسلامى ما ذكره ابن بطوطة المؤرخ المغربى فى القرن الثامن من أنه حضر جنازة لوالدة أحد الأمراء فى آسيا الصغرى ، فخرج ابنها الأمير على قدميه كاشفاً شعره ، وكذلك الأمراء والمماليك ، وثيابهم مقلوبة . . . وأما القاضى والخطيب والفقهاء فإنهم قلبوا ثيابهم ، ولم يكشفوا رءوسهم ، بل جعلوا عليها مناديل من الصوف الأسود ، عوضاً عن العمائم ، ولعلهم لم يضعوا العمائم على رءوسهم لما فى لونها من البياض الذى يتنافى مع الحداد ، فاستبدلوا بها المناديل السود . وأقاموا يطعمون الطعام أربعين يوماً ، وهى مدة العزاء عندهم . . .

وليس لبس السواد غريباً فى الأحزان ، ولا جديداً على المجتمع العربى ، فقد ذكر صاحب « صبح الأعشى » نقلا عن كتاب « الأوائل » للعسكرى أن العباسيين اتخذوا السواد شعاراً لهم حداداً على مقتل إبراهيم بن محمد العباسى أول القائمين بالدعوة منهم ، فلما أراد قتله مروان آخر خلفاء بنى أمية قال لشيعته : لا يهولنكم قتلى ، فإذا تمكنتم من أمركم

فاستخلفوا عليكم أبا العباس — يعنى السفاح — فلما قتله مروان ، لبس شيعته العباسيون السواد ، فلزمهم ذلك وصار شعاراً لهم .

ويظهر أن اللون الأزرق كان شعار الحداد ولبس الأحزان فى العصر العباسى ، وقد اتخذ الشاعر « كشاجم » من ذلك اللون المستعمل للحزن موضوعاً لعتاب حبيبته الهاجرة بقوله :

جعلتْ تأمَّلُ زرقةً فى خاتمى
وتقول فصُّك ذا لباس المأتم
فأجبتها مذ بان وصلك وانقضى
فبكيته بدم ودمع ساجم
ورغبت فى لبس الحداد ... لأنه
لبس الحزينة والحزين الهائم
وخشيت إن أنا فى الثياب لبسته
أن يفطنوا ، فجعلته فى خاتمى

فهذا نص شعرى يبين لنا أن الثياب الزرق كانت ثياب الحداد ، وأن الشاعر المحزون لصد محبوبته جعل الزرقة فى خاتمه بدلا من ثيابه لئلا يفتضح أمره ، وينكشف سره . . .

على أن أهل الأندلس قد خالفوا أهل المشرق فى هذا ، فجعلوا البياض لون ثياب الحداد عندهم . .

بين الخوف والأمن

الأمن والخوف ، العيارون والشطار ، اللصوص والتوابون ، الطوفية والحراسة ، تعذيب المجرمين ، مواكب التشهير والعقاب

ما أحسن العيش فى ظلال الأمن حيث يطمئن الناس على أرواحهم وأموالهم ، فتقر الجنوب فى المضاجع ، وتنام العيون وهى مطبقة الجفون لا تتقى الردى أو الأذى بإحدى المقلتين أو بهما معاً . . .

ولكن هل ظفر مجتمع بشرى بالأمان المطلق الذى لا يكدره مكدر ، ولا يعكر صفوه معكر ؟ وهل ظفر المجتمع العربى بمثل هذا السلام الذى ينشده الناس ليستريحوا ويريحوا ، ويعيشوا من الأمن على قرار مكين ، وأساس متين ، لا على مثل جناح الطائر حين يضرب فى الهواء . ويخفق فى الجواء ؟

لا شك أن السلطة الحازمة واليد الصارمة لا يجد القلق والاضطراب والفتنة سبيلا إليها ، فقد وضع زياد بن أبيه أوزار الفتنة فى البصرة حين حكمها حكما لا هوادة فيه ، حتى كان الرجل منهم يلقى أخاه فيقول له : انج سعد فقد هلك

سعيدا . ونشر محمد الإخشيد ألوية الأمن فى مصر بجيش قوى كان يقف لكل ثائر بالمرصاد ، وتولى « ابن ممدود » ولاية مصر فى العصر العباسى سنة ١٦٣ هـ ، وكان أول وال تركى عليها ، فجعل الشدة والحزم شعار ولايته ، وضرب على اللصوص وقطاع الطرق بيد من حديد حتى أخافهم ، وآمن الناس شرهم ، فكانوا يتركون بيوتهم مفتوحة ، ولا يخشون عليها شر العابثين .

ولكن اللصوص والعيارين وقطاع الطرق لم يخل منهم زمان فى تاريخ العرب المسلمين ، ولم يخل منهم حتى ذلك البيت الحرام الذى جعله الله مثابة للناس وأمنا . . . فهذا ابن جبير الرحالة فى القرن السادس يحدثنا عن الحرّابة المتلصصين فى مكة — تلك البلدة المكرمة — الذين كانوا يختلسون ما بأيدى الناس ، والذين كانوا آفة الحرم الشريف ، لا يغفل أحد عن متاعه طرفة عين إلا اختلس من يديه ، أو من وسطه ، بحيل عجيبة ولطافة غريبة . وقد وصفهم الرحالة بخفة اليد فى السرقة ، كما يفعل « النشالون » فى زماننا هذا ، ولكن الله كفى الحجاج شرهم فى العام الذى دخل ابن جبير فيه مكة بفضل ما أظهره أمير مكة من التشديد عليهم .

على طريق القافلة

وإذا كان بعض اللصوص يهاجمون فى زماننا بعض المصارف والخزائن الحكومية فقد حدث فى بغداد سنة ٢٣١ ﻫ أن جماعة من العامة هجموا على بيت المال وأخذوا شيئاً مما فيه من الذهب والفضة ، ولكن الخليفة الواثق أمر بالتشديد عليهم فأخذوا وسجنوا .

ولقد كان للشُّرط فضل كبير فى تعقب اللصوص وقطاع الطرق ، فكان طوفهم وعسهم بالليل وهم يحملون السلاح إلى صلاة الفجر مما يجعل العابثين بالأمن يحسبون لهم حسابهم ، وكان يعاونهم فى اقتفاء أثر المجرمين جماعة « التوابين » ، وهم شيوخ اللصوص الذين لحقتهم كبرة من السن فتابوا ، واتخذوا الاستدلال على اللصوص القائمين حرفة لهم ، فإذا جرت حادثة علموا من فعل مَن هى ، فدلوا عليه ؛ ولكنهم فى أحيان أخرى قد يقاسمون اللصوص ما سرقوه . . . وكان الخليفة المعتضد العباسى يستعين بهؤلاء التوابين. وقد أخفقوا مرة وأخفق الشُّرط . وأخفق الخليفة فوقهم فى أن يحملوا لصًّا على الإقرار بما سرق ؛ فما زال المعتضد بنفسه يحتال على المتهم ، وهو يجحد وينكر ، والخليفة يزيده حيلة مرة ، وشدة مرة أخرى ، حتّى أقر اللص بعد أن أحضر المسروق أمامه فأسقط فى يده ولم يجد سبيلا إلى الإنكار .

وكان للصوص من الحيل ما لا يستغرب صدوره من طبائع النفوس البشرية مهما اختلف بها الزمان والمكان ؛ فقد سقط جسر فى بغداد سنة ٢٨٣ على زورق مملوء بالناس ، فغرق من النفوس نحو ألف نفس واستخرجت الجثث من نهر دجلة بالكلاليب والغواصين ، فمنها من عرف أصحابها ، ومنها من لم يتعرف عليها أحد بما شوه الغرق من معالمها . . . وارتفع الضجيج من جانبى النهر ، وكثر الصراخ من كل مكان ؛ فبينما الناس كذلك إذ أخرج بعض الغواصين صبيا عليه حلى فاخرة من ذهب وجوهر . . . فبصر به شيخ من النظارة ، وكان من جماعة الطرارين ، فجعل الشيخ يلطم وجهه حتى دمى أنفه ، ثم تمرغ فى التراب ، وأظهر أن هذا الغلام الغريق ولده . . . وجعل يندبه قائلا : يا سيدى : لم تمت إذ أخرجوك صحيحاً سويًّا لم يأكلك السمك . . . ولم تمت يا حبيبى إلا وقد كحلت عينى بك مرة قبل الموت . . . وأخذه على حمار ثم مضى به . . . وجاء أبو الغلام الحقيقى ، وهو تاجر معروف مشهور باليسار فى بغداد باحثا عن الغلام مسترجعاً الله فيه ، راجياً أن يكفنه ويدفنه ؛ فخبره الناس الخبر ، وأبلغوه أن شيخاً حضر قبل هذا وأظهر من الندبة

للغلام والحسرة عليه ما لم يدع سبيلا إلى الشك فى أبوته له ، فبقى الأب الحقيقى ومن جاء معه من زملائه التجار مبهوتين لا يدرون ما يعملون ؛ ولكن جماعة « التوابين » فى منطقة الجسر عرفوا الشيخ المحتال من أوصافه ، فأيأسوا والد الطفل الغريق من العثور عليه ، وذكروا له أنه محتال كبير قد أعياهم أمره ، وحيرهم كيده . ثم قصوا عليه من حيل هذا المحتال ما نجد المؤرخ المسعودى يحكيه فى براعة وطرافة .

* * *

وإذا كنا نرى بعض الكبراء والأغنياء يأخذون بعض كبار اللصوص فى كنف حمايتهم ، ويؤوونهم اتقاء لشرهم ومداراة لهم ، واستعداء لهم على خصومهم فإن ذلك ليس من بدع هذا العصر ولا مستحدثاته ... فقد روى لنا صاحب « النجوم الزاهرة » كيف كان العيارون — وهم اللصوص والفتاك — فى مدينة بغداد ، وفى القرن الخامس الهجرى ، يلجأون إلى بيوت الأتراك والحواشى نهاراً ، ويخرجون إلى التلصص ليلا ، فيعملون العملات ، وقد أفسدوا وفعلوا أفعالا قبيحة ، وأضاعوا سلطان الخلافة ، حتى لم يبق للخليفة ولا لجلال الدولة معهم حكم . ولولا مواطأة الأتراك لهؤلاء العيارين ما فعلوا فى عاصمة الرشيد فعلاتهم ....

ولم يسلم بلد عربى من هؤلاء العيارين والشطار على ممر العصور ، فهذه مدينة « أنطاكية » فى سنة ٣٥٨ هـ يهاجمها جل من هؤلاء الشطـــار ، اسمه « الرعيلى » وينضم إليه جماعة من أتباعه فى هذه المهنة ، فيقوى أمره بهم . ونجد هؤلاء العابثين فى كتب التـــاريخ فى كل عصر بأسماء مختلفة ، ولكن الحرفة واحدة وهى النهب والسلب واللصوصية والفتك . . . ويسميهم المؤرخ « ابن بطوطة » الفتاك ؛ وكانت لهم ملابس خاصة بهم ، ولهم مئزر يأتزرون به على صدورهم يسمى « إزرة الشطار » ؛ ويظهر أنهم كانوا يبيحون نهب أموال الأغنياء والتجار ، ولا يجدون فى ذلك مخالفة للشرع بحجة أنهم ينهبون زكاة الأموال التى لا يخرجها أصحابها . . . هذا منطق عجيب ، يلجأ إليه المغالطون ، حين يسوغون إثم ما يفعلون .

وليس عيّار مدينة أنطاكية فى القرن الرابع الهجرى إلا نموذجاً لعيارى بغداد فى القرن الخامس ، وليس « الرعيلى » فى أنطاكية ، إلا تقدمة « لابرحمى » عيار عاصمة الخلافة العباسية .

ولم تسلم مصر بدورها من هؤلاء العيارين الفتاك وقطاع الطرق ، فنى العصر العباسى الأول وفى خلافة الهادى العباسى ،

وفى ولاية الفضل بن صالح على مصر يروى اليعقوبى المؤرخ المعروف بابن واضح أن ابن الأصبغ بن عبد العزيز خرج بناحية «أهناس» من قرى صعيد مصر فى خلق عظيم ، فقطع الطريق ، وأخاف السبيل ، ولكن الفضل وجه إليه من يحاربه حتى أتى به إليه أسيراً ، فضرب الفضل عنقه ، وصلبه — ليكون عبرة لغيره — وبعث برأسه إلى الخليفة الهادى ببغداد .

وفى عهد السلطان الناصر قلاون ، وفى سنة ٦٩٨ هـ كثر فساد العربان ، وتعدى شرهم فى قطع الطريق ، إلى أن فرضوا على التجار وأرباب المعايش بأسيوط ومنفلوط فرائض ، واستخفوا بالولاة ، وتسموا بأسماء الأمراء ، ولبسوا الأسلحة ، وأخرجوا أهل السجون بأيديهم ، فأمر السلطان بخروج تجريدة لقتالهم ، وسدت عليهم المنافذ والمسالك ، ومنع الناس من السفر إلى الصعيد حتى يفرغ المقاتلون من قتال العابثين وأخذ الطريق عليهم .

أما البلاد الحجازية فقد شاهدها ابن جبير فى القرن السادس وأول السابع الهجرى ، ولم يزعجه فيها مثل قطاع الطرق الذين يصفهم بفك عُرا الإسلام ، واستحلال أموال الحاج ودمائهم ، وقد اتخذوه معيشة حرام ، وجعلوه سبباً

إلى استلاب الأموال ونهبها . وقد ناشد السلطان صلاح الدين الأيوبي وأعوانه على الحق أن ينقذ المسلمين بجميل نظره ولطيف صنعه من هؤلاء « الحرامية » الظالمين .

ولقد كان المجرمون يساقون إلى التعذيب والعقوبات الشديدة في مواكب للتشهير بهم ، حتى يكونوا موضع اعتبار لغيرهم ، ولم يكن نصيب اللصوص والفتاك وحدهم هذا التشهير ، بل نرى في سلطنة مصر المملوكية وفي عهد الناصر بالذات أن أميراً من أمراء حلب عرف عنه أنه انتمى إلى التتار حين غارتهم على البلاد الشامية وصار يدلهم على الطرقات ، فقبض عليه ، وسمر على جمل وشهر بدمشق وضواحيها .

ونرى في بغداد قبل ذلك بكثير وفي عهد الخليفة المعتصم العباسي سنة ٢٢٣ هـ أن بابك الخرمي الثائر الكبير يقبض عليه ، فيركب على فيل ليشهر أمره وليعرفه الناس الذين اصطفوا على طول الطرق سماطين ، وكان عليه قباء من الديباج وقلنسوة مدورة من السمور ؛ وقد هيئوا له الفيل وخضبوا أطرافه . . . وألبسوه من الحرير والأمتعة التي تليق به شيئاً كثيراً ، واشترك الشعراء في تسجيل هذا الموكب التشهيري الطريف فقال بعضهم :

قد خضب الفيل كعاداته ... يحمـــل شيطان خراسان

والفيل لا تخضب أعضاؤه إلا لذى شأن من الشان . . .

ولم ينج من مواكب التشهير بعض المنكودين من الوزراء ، ممن ساقهم سوء طالعهم إلى مثل هذا المصير الأليم . . . ففى القرن الخامس الهجرى وفى عهد الخليفة القائم العباسى ظفر البساسيرى بالوزير رئيس الرؤساء على بن المسلمة ، فأخرجه مقيدا ، وعليه جبة صوف وطرطور من لبد أحمر ، وفى رقبته مخنقة فيها جلود مقطعة شبيهة بالتعاويذ ، وأركب حماراً . . . وطيف به فى الحال ، ووراءه من يضربه بجلد وينادى عليه ؛ والرئيس صابر يقرأ قوله تعالى : (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء) .

ولم يكن ذلك العذاب آخر ما لقيه هذا الوزير الذى كان قبل الوزارة صاحب معرفة بالفقه ورواية الحديث . . . فإنه لما اجتاز بالكرخ على هذه الصورة المؤلمة رماه أهلها بالمداسات ، وبصقوا فى وجهه ، ثم نصبت له خشبة فى باب خراسان ، فأنزل عن الحمار ، وخيط عليه جلد ثور قد سلخ فى الحال ، ووضعت قرون الثور على رأسه . . . وعلق بكلاّب فى حلقه ، واستبقى فى الخشبة حيًّا إلى أن مات من يومه .

وسبحان الذى يعز من يشاء ، ويذل من يشاء . . .

(انتهى)